
روائع من
مقالات
المفكر الدكتور
مصطفى محمود

بسم الله الرحمن الرحيم

(من أنت ؟)

من أنت ؟

من أنت.. حينما تتردد لحظة بين الخير و الشر.. من تكون..؟!

أتكون الإنسان الخير أم الشرير أم ما بينهما..؟!

أم تكون مجرد احتمال للفعل الذي لم يحدث بعد..؟!

إن النفس لا تظهر منزلتها و لا تبدو حقيقتها إلا لحظة أن تستقر على اختيار، و تمضي فيه باقتناع و عمد و إصرار، و تتمادى فيه و تخلد إليه و تستريح و تجد ذاتها.

و لهذا لا تؤخذ على الإنسان أفعال الطفولة، و لا ما يفعله الإنسان عن مرض أو عن جنون أو عن إكراه...

و إنما تبدأ النفس تكون محل محاسبة منذ رشدها، لأن بلوغها الرشد يبدأ معه ظهور المرتكزات و المحاور التي ستنمو عليها الشخصية الثابتة.

و اختيارات الإنسان في خواتيم حياته هي أكثر ما يدل عليه، لأنه مع بلوغ الإنسان مرحلة الخواتيم يكون قد تم ترشح و تبلور جميع عناصر شخصيته، و تكون قد انتهت ذبذبتها إلى استقرار، و تكون بوصلة الإرادة قد أشارت إلى الطابع السائد لهذه الشخصية.

و لهذا يقول أجدادنا.. العبرة بالخواتيم.. و ما يموت عليه العبد من أحوال، و أعمال و ما يشغله في أيامه الأخيرة هو ما سوف يبعث عليه.. تماما كما ينام النائم فيحلم بما استقر في باله من شواغل لحظة أن رقد لينام.

و لهذا أيضا لا تؤخذ النفس بما فعلته و ندمت عليه و رجعت عنه، و لا تؤخذ بما تورطت فيه ثم أنكرته و استنكرته، فإن الرجوع عن الفعل ينفي عن الفعل أصالته و جوهريته و يدرجه مع العوارض العارضة التي لا ثبات لها.

و قد أعطى الله الإنسان مساحة كبيرة هائلة من المنازل و المراتب.. يختار منها علوا و سفلا ما يشاء.. أعطاه معراجا عجيبا يتحرك فيه صاعدا هابطا بلا حدود.. ففي الطرف الصاعد من هذا المعراج تلطف و ترق الطبائع، و تصفو المشارب و الأخلاق حتى تضاهي الأخلاق الإلهية في طرفها الأعلى (و ذلك هو الجانب الروحي من تكوينه) و في الطرف الهابط تكثف و تغلظ الرغبات و الشهوات، و تتدنى الغرائز حتى تضاهي الحيوان في بهيميته، ثم الجماد في جموده و آليته و قصوره الذاتي.. ثم الشيطان في ظلمته و سلبيته (و ذلك هو الجانب الجسدي الطيني من التكوين الإنساني).

و بين معراج الروح صعودا و منازل الجسد و الطين هبوطا، تتذبذب النفس منذ ولادتها، فتتسامى من هنا و تتردى هناك بين أفعال السمو و أفعال الانحطاط، ثم تستقر على شاكلتها و حقيقتها.

(قل كل يعمل على شاكلته) (٨٤ –الإسراء)

و متى يبلغ الإنسان هذه المشاكلة و المضاهاة بين حقيقته و فعله فإنه يستقر و يتمادى، و يمضي في اقتناع و إصرار على خيره أو شره حتى يبلغ نهاية أجله.

و معنى هذا أن النفس الإنسانية أو ((الأنا)).. هي شيء غير الجسد.. و هي ليست شيئا معلوما بل هي سر و حقيقة مكنونة لا يجلوها إلا الابتلاء، و الاختبار بالمغريات.

و ما الجسد و الروح إلا الكون الفسيح الذي تتحرك فيه تلك النفس علواً و هبوطاً بحثاً عن المنزلة التي تشاكلها و تضاهيها و البرج الذي يناسب سكناها فتسكنه..
فمنا من يسكن برج النار (الشهوات) و هو مازال في الدنيا، فلا يبرح هذا البرج حتى الممات، فتلك هي النفس التي تشاكل النار في سرها و هي التي سبق عليها القول و العلم بأنها من أهل النار.

و ذلك علم سابق عن النفوس لا يتاح إلا لله وحده، لأنه وحده الذي يعلم السر و أخفى، فهو بحكم علمه التام المحيط يعلم أن هذه الحقيقة المكنونة في الغيب التي اسمها فلان، و التي مازالت سرا مستترا لم يكشفه الابتلاء و الاختبار بعد، و التي لم تولد بعد و لم تنزل في الأرحام.. يعلم ربنا تبارك و تعالى بعلمه المحكم المحيط أن تلك النفس لن تقر و لن تستريح و لن تختار إلا كل ما هو ناري شهواني سلبي عدمي.. يعلم عنها ذلك و هي مازالت حقيقة مكنونة لا حيلة لها في العدم.

و هذا العلم الرباني ليس علم إلزام و لا علم قهر، بل هو علم حصر و إحاطة، فالله بهذا العلم لا يجبر نفسا على شر، و لا ينهى نفساً عن خير، فهو يعلم حقائق هذه الأنفس على ماهي عليه دون تدخل.

فإذا جاء ميقات الخلق (و جميع هذه الأنفس تطلب من الله أن يخلقها و يرحمها بإيجادها و هي مازالت حقائق سالبة في العدم) أعطى الله تلك النفس اليد و القدم و اللسان لتضر و تنفع، و أعطاها ذلك الكون الفسيح الذي اسمه الروح و الجسد لتمرح فيه صاعدة هابطة تختار من منازله ما يشاكلها لتسكن فيه.. فإذا سكنت و استقرت، و تسجلت أعمالها قبضها الله إليه يوم البعث و الحساب المعلوم.. حيث تقرأ كل

نفس كتابها، و تعلم منزلتها فلا يعود لأحد العذر في أن يحتج بعد ذلك حينما يضعه الله في مستقر الجنة أو مستقر النار الأبدية.

و قد أعذر الله و أنذر الجميع من قبل ذلك بالرسل و الكتب و الآيات، و أقام عليهم الحجة بما وهب لهم من عقل و ضمير و بصيرة و حواس تميز الضار من النافع و الخبيث من الطيب.

و لهذا حينما تطالب النفوس المجرمة في النار أن تعطى فرصة أخرى، و أن ترد إلى الدنيا لتعمل الصالحات، و حينما يدعي البعض أن تعذيب تلك النفوس أبديا على ذنوب مؤقتة ارتكبتها في الزمن المحدود هو أمر ظالم.

حينئذ يجيب ربنا متحدثا عن هؤلاء المجرمين قائلا:

(و لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه و إنهم لكاذبون) (٢٨ – الأنعام)

و في هذا الرد البليغ إشواة إلى أن إجرام تلك الأنفس لم يكن ذنباً موقوتاً في الزمن.. بل لأنهم ليعاودون هذا الجرم في كل زمن و مهما عاود الله خلقهم.. لأن ذلك الإجرام حقيقة مكنونة، و ليس عرضاً محدوداً بالزمان و المكان.. و لهذا كان عقابه الأبد، و ليس العذاب الموقوت.

و نقول أيضا: إن هناك عدالة عميقة كامنة في هذا المصير.. ناراً أبدية أم جنة.. إن كل نفس بينها و بين ذلك المصير النهائي مشاكلة تامة، و مضاهاة و ائتلاف في الحقائق.. فالحقائق النارية تسكن النار و الحقائق النورانية تسكن الجنة.. فلا قسوة هناك و لا وحشية، و إنما وضع لكل شيئ في مكانه.

و السر الآخر الذي ينكشف لنا أن البيئة لا يمكن أن تصنع من إنسان صالح (نفسه صالحة بالحقيقة) إنساناً مجرماً و لا العكس، و أن الكلام على أن مظالم المجتمع جعلت فلاناً لصاً، هذا الكلام لا يصدق دينياً و لا واقعياً. فالمجتمع يضع

للجريمة إطارها فقط و لكن لا ينشئ جريمة في إنسان غير مجرم.. بمعنى أن لص هذا الزمان تعطيه إمكانيات العصر العلمية وسائل إلكترونية و أشعة ليزر ليفتح بها الخزائن، بينما نفس اللص منذ عشرين سنة لم يكن يجد إلا طفاشة.. كما أن قاتل اليوم يمكن أن يستخدم بندقية مزودة بتلسكوب (كما فعل قاتل كنيدي) بينما هو في أيام قريش لا يجد إلا سيفاً ، ثم قبل ذلك بعدة قرون لا يجد إلا عصاً ، ثم قبل ذلك على أيام قابيل و هابيل لا يجد إلا الحجارة.

إن المجتمع و العصر و الظروف تصنع للجريمة شكلها، و لكنها لا تنشئ مجرماً من عدم، و لا تصنع إنساناً صالحاً من نفس لا صلاح فيها.

و بالمثل لا يستطيع الأبوان بحسن تربيتهما أن يقلبا الحقائق فيخلقا من ابنهما المجرم ابناً صالحاً و لا العكس.

و نجد في سورة الكهف حكاية عن غلام مجرم كافر، أبواه مؤمنان.

((و أما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً و كفراً))
(٨٠ – الكهف)

و أكثر الأنبياء كانوا من آباء كفرة، و استجابت أكثر الأقوام لهؤلاء الأنبياء و لم يستجب الآباء.

من الذي يستطيع أن يقلب حقائق الأنفس و يغيرها؟ لا أحد سوى الله وحده.

و الله لا يفعل ذلك إلا إذا طلبت النفس ذاتها أن تتغير و ابتهلت من أجل ذلك، لأنه واثقنا جميعا على الحرية التامة و على أنه لا إكراه في الدين.. و أن من شاء أن يكفر فليكفر، و من شاء أن يؤمن فليؤمن.. و أنه لن يقهر نفساً على غير هواها.. و أنه لن يغير من نفس إلا إذا بادرت بالتغير و طلبت التغير.

((إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)) (١١ – الرعد)

و تلك هي التزكية.

((و لولا فضل الله عليكم و رحمته ما زكا منكم من أحد أبداً و لكن الله يزكي من يشاء)) (٢١ – النور)
و على الإنسان أن يبدأ بتزكية نفسه و تطهيرها.

((قد أفلح من زكاها، و قد خاب من دساها)) (٩، ١٠ – الشمس)

((من تزكى فإنما يتزكى لنفسه)) (١٨ – فاطر)

و لا سبيل إلى تطهير النفس و تزكيتها إلا بإتقان العبادة و التزام الطاعات، و إطالة السجود و فعل الصالحات.

و بحكم رتبة العبودية يصبح الإنسان مستحقاً للمدد من ربه، فيمده الله بنوره و يهيئ له أسباب الخروج من ظلمته.

و ذلك هو سلوك الطريق عند الصالحين من عباد الله، بالتخلية (تخلية النفس من الصفات المذمومة)، ثم التحلية (تحلية القلب بالذكر و الفضائل) و التعلق و التخلق و التحقق.

و التعلق عندهم هو التعلق بالله و ترك التعلق بما سواه.

و التخلق هو محاولة التحلي بأسمائه الحسنى، الرحيم و الكريم و الودود و الرءوف و الحليم و الصبور و الشكور.. قولا و فعلا.

و التحقق هو أن تصل إلى أقصى درجات الصفاء و اللطف و المشاكلة، فتصبح نورانيا في طباعك أو تكاد.

و لا سبيل إلى صعود هذا المعراج إلا بالعبادة و الطاعة و العمل الصالح، و التزام المنهج القرآني و السلوك على قدم محمد العبد الكامل عليه صلوات الله و سلامه.

و الذي يعلق على هذا الكلام فيقول:

قولك عن النفس أنها ((السر)) هو كلام أغمضت فيه، و ألغزت و حجبت و ما كشفت.

أقول له إن نفساً فيها القابلية للحركة على جميع تلك المعارج صعوداً و هبوطاً، و فيها القابلية أن تكون ربانية أو شيطانية أو حيوانية أو جمادية.

نفس بهذه الإمكانيات هي ((السر الأعظم)) ذاته.

و من ادعى أنه أدرك السر الأعظم؟!!

إن هي إلا أصابع تشير.

و المشار إليه لا يعلمه إلا الله.

و نحن جميعاً لا نعلم.

((نقطة من البحر المحيط))

في ساعات الصفاء حينما تنقشع الغواشي عن القلب و تنجلي البصيرة، و أرى كل شيء أمامي بوضوح، تبدو لي الدنيا بحجمها الحقيقي و بقيمتها الحقيقية، فإذا هي مجرد رسم كروكي أو ديكور مؤقت من ورق الكرتون، أو بروفة توزع فيها الأدوار لاختيار قدرات الممثلين، أو مجرد ضرب مثال لتقريب معنى بعيد و مجرد و هي في جميع الأحوال مجرد عبور و مزار و منظر من شباك في قطار.

و هي الغربة و ليست الوطن.

و هي السفر و ليست المقر.

أعجب تماما و أدهش من ناس يجمعون و يكنزون و يبنون و يرفعون البناء و ينفقون على أبهة السكن و رفاهية المقام.. و كأنما هو مقام أبدي.. و أقول لنفسي أنسوا أنهم في مرور؟. ألم يذكر أحدهم أنه حمل نعش أبيه و غدا يحمل ابنه نعشه إلى حفرة يستوي فيها الكل؟.. و هل يحتاج المسافر لأكثر من سرير سفري و هل يحتاج الجوال لأكثر من خيمة متنقلة؟.

و لم هذه الأبهة الفارغة و لمن؟.

و لم الترف و نحن عنه راحلون؟.

هل نحن أغبياء إلى هذه الدرجة؟. أم هي غواشي الغرور و الغفلة و الطمع و عمى الشهوات و سعار الرغبات و سباق الأوهام؟. و كل ما نفوز به في هذه الدنيا وهمي، و كل ما نمسك به ينفلت مع الريح.

و الذين يتقاتلون ليسبق الواحد منهم الآخر أكثر عمى، فالشارع سد عند نهايته و كل العربات تتحطم و يستوي فيها السابق باللاحق، و لا يكسب أحد منهم إلا وزر قتل أخيه.. بل إن أكثر الناس أحمالا و أوزارا في هذه الدنيا هم الأكثر كنوزا و الأكثر ثراء، فكم ظلموا أنفسهم ليجمعوا، و كم ظلموا غيرهم ليرتفعوا على أكتافهم.

و لعلنا سمعنا مثل هذا الكلام و نحن نلهث متسابقين على الطريق.. فهو كلام قديم قدم التاريخ رددته جميع الأسفار و قاله جميع الحكماء و لكنا لم نلق له بالا و لم يتجاوز شحمة الأذن.

و مازلنا نسمع و لا نسمع برغم تطور أدوات الاستماع و كثرة الميكروفونات و مكبرات الصوت، و لاقطات الهمس الإلكترونية من فوق الفضاء و من تحت الثرى.

و مازلنا نزداد صمما عن إدراك هذه الحقيقة البسيطة الواضحة و كأنها طلسم مطلسم و لغز عصي على الأفهام.

هل نحن مخدرون؟.

أم هناك ما هو أقوى أثرا و أكثر شراسة من الخمور و المخدرات، هي مادية العصر التي طبعت الناس بذلك الشعار المسكر؟ غامر و اكسب.. و انهب و اهرب.. و سارع إلى اللذة قبل أن تفوتك.. و عش لحظتك بملئها طولا و عرضا و لا تفكر ماذا بعد فقد لا يكون هناك بعد.

نعم تلك هي الخدعة التي يستدرج إليها الكل.. إنه لا شيء سوى ما نرى و نسمع و نذوق و نلمس من ماديات، و أنه ليس وراء هذه الدنيا شيء و نفوسنا الأمارة استراحت إلى هذه الفلسفة لأنها تشبع لها رغائبها و تحقق لها مشتهياتها، و الحيوان في داخلنا اختارها لأنها تشبع غرائزه.

و تلك النفس هي الفتنة و الحجاب و هي التي أفرزت هذه الحضارة المادية و روجتها.

ألم يسأل داوود ربه: يارب كيف أصل إليك. فقال له ربه.. اترك نفسك و تعال.. أن يترك هذه النفس لأنها العقبة.. ((فلا اقتحم العقبة. و ما أدراك ما العقبة. فك رقبة)) (١١ – ١٣ البلد)

لا انفكاك من هذه العقبة إلا بالانفكاك من طمعك.. فتفك الرقبة و تطعم المسكين و تؤثر غيرك على نفسك. و لذلك لم يطلب الإسلام من المسلم نبذ الدنيا و إنما طلب منه قمع النفس و كبحها و شكمها.. لأن النفس هي الأصل.. و الدنيا مجرد أداة لتلك النفس لتختال و تزهو و تتلذذ و تستمتع.

إن النفس هي الموضوع و هي ميدان المعركة و محل الابتلاء، و الدنيا ورقة امتحانها، و مطلوب الدين هو الإرتقاء بهذه النفس و الارتفاع بها من شهوات البطن و الفرج و من شهوات الجمع و الاكتناز، و من حمى الاستعراض و الكبر و التفاخر ليكون لها معشوق أرقى هو القيم و الكمالات، و معبود واحد هو جامع هذه الكمالات كلها..
و إنما تدور المعركة في داخل النفس و في شارع الدنيا حيث يتفاضل الناس بمواقفهم من الغوايات و المغريات و ما تعرض عليهم شياطينهم من خواطر السوء و من فرص اللذة كل لحظة.

و لم يطلب الإسلام من المسلم أن ينبذ الدنيا، بل طلب منه أن يخوضها مسلحا بهذه المعرفة، فالدنيا هي مزرعته و هي مجلى أفعاله و صحيفة أعماله.

و قدم له فلسفة أخرى في مواجهة الفلسفة المادية.. قدم له فلسفة استمرار و بقاء فهو لن يموت و يمضي إلى عدم.. بل إلى حياة أخرى سوف تتعدد فصولا و تمضي به

كدحا و جهادا حتى يلقى ربه: ((يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه)) (٦ – الانشقاق)

الحضارة المادية لم تقدم للإنسان إلا الموت و حياة تمضي سدا و تنتهي عبثا.. أما الإسلام فقدم للإنسان الخلود و حياة تمضي لحكمة و تنتقل من طور إلى طور وفقا لنواميس ثابتة من العدل الإلهي، حيث لا يذهب أي عمل سدى و لو كان مثقال ذرة من خير أو شر.. فمن يعمل مثقل ذرة خيرا يره و من يعمل مثقال ذرة شرا يره.

و اليوم تصل الحضارة المادية إلى ذروة من القوة و العلم و تكتمل لها أدوات الفعل و التأثير من إذاعة و تليفزيون و سينما و مسرح و كتب و مجلات، و هي سواء كانت أمريكية أو سوفييتية، فهي لا تفتأ تغتال العقل و الروح و تتحالف على الإنسان بخيلها و رجلها، و لكنها برغم كل شيء ضعيفة متهافتة واهية لأنها تغتال نفسها ضمن ما تغتال و تأكل كيانها، وسوف تقتتل مع بعضها البعض و تتحارب بالمخلب و الناب و بالقنابل الذرية و القذائف النووية فالطمع و الجشع حياتها و موتها.

و على رقعة صغيرة من الأرض يقف الإسلام كمنارة في بحر لجي مظلم متلاطم الموج يعج بالبوارج و الغواصات و حاملات الصواريخ و حاملات الرءوس النووية.

و ما أكثر المسلمين ممن هم في البطاقة مسلمون، و لكنهم في الحقيقة ماديون اغتالتهم الحضارة المادية بأفكارها و سكنتهم حتى الأحشاء و النخاع، فهم يقتل بعضهم البعض و يعيشون لليوم و اللحظة و يجمعون و يكنزون و يتفاخرون و لا يرون من الغد أبعد من لذة ساعة، و يتكلمون بلغة سوفييتية أو لغة أمريكية و لا يعرفون لهم هوية..

و قد نجد من يصلي منهم إلى القبلة خمس مرات في اليوم و لكن حقيقة قبلته هي فاترينة البضائع الاستهلاكية.

و لا يبقى بعد ذلك إلا قليل أو أقل القليل ممن عرف ربه.

و لو بقي مؤمن واحد مرابط على الحق في الأربعة آلاف مليون فهو وحده أمة ترجحهم جميعا عند الله يوم تتكشف الحقائق و ينهدم مسرح العرائس و يتمزق ديكور الخيش و الخرق الملونة، و تنهار علب الكرتون التي ظنناها ناطحات سحاب و تنتهي الدنيا.

و حينئذ و عندما تهتك الأستار و تقام الموازين، سوف نعرف ما الدنيا و ماذا تساوي.. و ماذا يساوي كل الزمن حينما نضع أقدامنا في الأبد.

و حينئذ سوف نتذكر الدنيا كما نتذكر رسما كروكيا، أو مسرح خيال الظل، أو نموذج مثال مصنوع من الصلصال لتقريب معنى بعيد بعيد و مجرد..

و سوف نعلم أنها ما كانت سوى النقطة التي فيها كل أملاح البحر المحيط، و لكنها لم تكن أبدا البحر المحيط.

((علم نفس قرآني))

سيداتي وسادتي.. هل تعلمون ما معنى أن الله موجود؟

معناه أن العدل موجود و الرحمة موجودة و المغفرة موجودة.

معناه أن يطمئن القلب و ترتاح النفس و يسكن الفؤاد و يزول القلق فالحق لابد واصل لأصحابه.

معناه لن تذهب الدموع سدى و لن يمضي الصبر بلا ثمرة و لن يكون الخير بلا مقابل و لن يمر الشر بلا رادع و لن تفلت الجريمة بلا قصاص.

معناه أن الكرم هو الذي يحكم الوجود و ليس البخل..و ليس من طبع الكريم أن يسلب ما يعطيه.. فإذا كان الله منحنا الحياة، فهو لا يمكن أن يسلبها بالموت.. فلا يمكن أن يكون الموت سلبا للحياة.. و إنما هو انتقال بها إلى حياة أخرى بعد الموت ثم حياة أخرى بعد البعث ثم عروج في السماوات إلى ما لا نهاية.

معناه أنه لا عبث في الوجود و إنما حكمة في كل شيء.. و حكمة من وراء كل شيء.. و حكمة في خلق كل شيء.. في الألم حكمة و في المرض الحكمة و في العذاب حكمة و في المعاناة حكمة و في القبح حكمة و في الفشل حكمة و في العجز حكمة و في القدرة حكمة.

معناه ألا يكف الإعجاب و ألا تموت الدهشة و ألا يفتر الانبهار و ألا يتوقف الإجلال.

فنحن أمام لوحة متجددة لأعظم المبدعين.

معناه أن تسبح العين و تكبر الأذن و يحمد اللسان و يتيه الوجدان و يبهت الجنان.

معناه أن يتدفق القلب بالمشاعر و تحتفل الأحاسيس بكل لحظة و تزف الروح كل يوم جديد كأنه عرس جديد.

معناه ألا نعرف اليأس و لا نذوق القنوط.

معناه أن تذوب همومنا في كنف رحمة الرحيم و مغفرة الغفار..

ألا يقول لنا ربنا ((إن مع العسر يسرا)).. و أن الضيق يأتي و في طياته الفرج فأي بشرى أبعث للاطمئنان من هذه البشرى.

و لأن الله سبحانه واحد.. فلن يوجد في الوجود إله آخر ينقض وعده و لن ننقسم على أنفسنا و لن تتوزعنا الجهات و لن نتشتت بين ولاء لليمين و ولاء لليسار و تزلف للشرق و تزلف للغرب و توسل للأغنياء و ارتماء على أعتاب الأقوياء.. فكل القوة عنده و كل الغنى عنده و كل العلم عنده و كل ما نطمح إليه ين يديه.. و الهرب ليس منه بل إليه.. فهو الوطن و الحمى و الملجأ و المستند و الرصيد و الباب و الرحاب.

و ذلك الإحساس معناه السكن و الطمأنينة و راحة البال و التفاؤل و الهمة و الإقبال و النشاط و العمل بلا ملل و بلا فتور و بلا كسل و تلك ثمرة ((لا إله إلا الله)) في نفس قائلها الذي يشعر بها و يتمثلها، و يؤمن بها و يعيشها و تلك هي أخلاق المؤمن بلا إله إلا الله.

و تلك هي الصيدلية التي تداوي كل أمراض النفوس و تشفى كل علل العقول و تبرئ كل أدواء القلوب.

و تلك هي صيحة التحرير التي تحطم أغلال الأيدي و الأرجل و الأعناق و هي أيضا مفتاح الطاقة المكنوزة في داخلنا و كلمة السر التي تحرك الجبال و تشق البحور و تغير ما لا يتغير.

و لم يخلق إلى الآن العقار السحري الذي يحدث ذرة واحدة من هذا الأثر في النفس.

و كل عقاقير الأعصاب تداوي شيئا و تفسد معه ألف شيء آخر.. و هي تداوي بالوهم و تريح الإنسان بأن تطفئ مصابيح عقله و تنومه و تخدره و تلقى به إلى قاع البحر موثوقا بحجر مغمى عليه شبه جثة.

أما كلمة لا إله إلا الله فإنها تطلق الإنسان من عقاله و تحرره من جميع العبوديات الباطلة و تبشر ه بالمغفرة و تنجيه من الخوف و تحفظه من الوسواس و تؤيده بالملأ الأعلى و تجعله أطول من السماء هامة و أرسخ من الأرض ثباتا.. فمن استودع همه و غمه عند الله بات على ثقة و نام ملء جفنيه.

ولأن الله هو خالق الكون و مقدر الأقدار و محرك المصائر.. فليس في الإمكان أبدع مما كان.. لأنه المبدع بلا شبيه.. لا يفوقه في صنعته أحد.. فلن تعود الدنيا مسرحا دمويا للشرور و إنما درسا رفيعا من دروس الحكمة.

و لأن الله موجود فإنك لست وحدك.. و إنما تحف بك العناية حيث سرت و تحرسك المشيئة حيث حللت.

و ذلك معناه شعور مستمر بالإئتناس و الصحبة و الأمان.. لا هجر.. و لا غدر.. و لا ضياع.. و لا وحدة.. و لا وحشة و لا اكتئاب. و ذلك حال أهل لا إله إلا الله.

يذوقون شميم الجنة في الدنيا قبل أن يدخلوها في الآخرة و هم الملوك بلا عروش و بلا صولجان.. و هم الراسخون المطمئنون الثابتون لا تزلزهم الزلازل و لا تحركهم النوازل.

تلك هي الصيدلية الإلهية لكل من داهمه القلق.. فيها علاجه الوحيد.. و فيها الإكسير و الترياق و ماء الحياة الذي لا يظمأ بعده شاربه.. و فيها الرصيد الذهبي و المستند لكل ما نتبادل على الأرض من عملات ورقية زائلة متبدلة.. و فيها البوصلة و المؤشر و الدليل.

و فيها الدواء لكل داء.

التركيبة النفسية الإيمانية

و المؤمنون أهل حلم و صبر و تواضع و تسامح و حياء.

((يمشون على الأرض هونا و إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما)) (٦٣ الفرقان)

تعرفهم بطول الصمت و تواصل الفكر و خفض الصوت و البعد عن الهرج و الصخب و التلاعن.

و تعرفهم بالتأني و الاتقان و الإحسان فيما يعهد إليهم من أعمال، و تعرفهم بالدماثة و لين الطبع و الصدق و الوفاء و الاعتدال في الأخذ من كل شيء.

و إذا كان لابد من اختيار صفة واحدة جامعة لطابع المؤمن لقلت هي:

السكينة، فالسكينة هي الصفة المفر دة التي تدل على ان الانسان استطاع أن يسود مملكته الداخلية و يحكمها و يسوسها.

و هي الصفة المفردة التي تدل على انسجام عناصر النفس و التوافق بين متناقضاتها و انقيادها في خضوع و سلاسة لصاحبها و هي أمر لا يوهب إلا لمؤمن.

و أنت تقرأ هذه السكينة في هدوء صفحة الوجه.. ليس هدوء السطح بل هدوء العمق.. هدوء الباطن.. و ليس هدوء الخواء و لا سكون البلادة، و إنما هدوء التركيز و الصفاء و اجتماع الهمة و وضوح الرؤية.. و كأنما الذي تراه أمامك يضم البحر بين جنبيه.

و البحر ساكن و لكنه جياش يطرح الآلئ و الأصداف و المراجين من أعماقه لحظة بعد لحظة، فهو غني الغنى اللانهائي.

و هذه خاصية المؤمن.. ذلك الهدوء المشع الثري.. لماذا..؟!

لأن علاقة المؤمن بماحوله علاقة متميزة مختلفة.. علاقته بالأمس و الغد و علاقته بالموت.. و علاقته بالناس.. و علاقته بعمله و نظرته للأخلاق.

فالأخلاق بالمعنى المادي الواقعي هي أن تشبع رغباتك بما لا يتعارض مع حق الآخرين في إشباع رغباتهم هم أيضا، فهي مفهوم مادي اجتماعي بالدرجة الأولى و هدفها حسن توزيع اللذات.

أما الأخلاق بالمعنى الديني – فهي بالعكس – أن تقمع رغباتك و تخضع نفسك و تخالف هواك و تحكم شهواتك لتتحقق برتبتك و منزلتك العظيمة كخليفة عن الله و وارث للكون المسخر من أجلك.. فأنت لا تستحق هذه الخلافة و السيادة على العالم، إلا إذا استطعت أولا أن تسود نفسك و تحكم مملكتك الداخلية.. و مفهوم الأخلاق هنا فردي، و هدفه بلوغ الفرد درجة كماله و إن كانت هناك ثمرة اجتماعية يجنيها ذلك الفرد فإنها تأتي بالتبعية.

فالمجتمع الذي يتألف من مثل هؤلاء الأفراد لابد أن يسوده الوئام و السلام و المحبة.

و الأخلاق بهذا المعنى هي خروج من عبودية النفس إلى مرتبة عليا.. خروج من الرغبة في شيء مادي إلى الرغبة في حضرة الإله.. خروج من الجزء إلى الكل.. من النسبي إلى المطلق حيث يجب أن تطلع كل العيون.. و هذا لا يمكن أن يتم إلا إذا تم تصحيح و تكميل بصر العين.. فأصبحت ترى كل شيء بحقيقة حجمه و نسبته لا تحجبها لذة دنيوية عن رؤية الكمالات الإلهية.

و لهذا تبدأ الأخلاق الدينية بمجاهدة الشهوات حتى تحكمها و تخضعها و لا تبدأ بالتسليم لها و بإشباعها كما هو شائع، فهي ليست دعوة إلى حسن توزيع اللذات و إنما هي دعوة إلى الخروج من أسر الملذات، و هكذا تختلف النظرتان تماما و تؤدي كل منهما إلى انسان مختلف.

فالانسان المادي يستهدف النزوة و اللذة الفورية و المقابل المادي العاجل ((لأنه لا يعتقد في وجود شيء وراء الحياة الدنيوية))، و هو لهذا يجري وراء((اللحظة)) و يلهث وراء ((الآن))، و لكن اللحظة متفلتة و ((الآن)) هارب و الفوت و الحسرة تلاحقانه في أعقاب كل خطوة يخطوها و هو متروك دائما و في حلقه غصة و في لبه حسرة و كلما أشبع شهوته ازدادت جوعا. و هو يراهن كل يوم بلا ضمان و بلا رصيد فهو محكوم عليه بالموت لا يعرف متى و كيف و أين، فهو يعيش في قلق و توتر مشتت القلب متوزع الهمة بين الرغبات لا يعرف للسكينة طعما حتى يدهمه الموت رغم أنفه.

أما الانسان المؤمن فهو تركيب نفسي مختلف و أخلاقية مختلفة، فهو يرى اللذات الدنيوية زائلة، و أنها لا تساوي شيئا، و أنها مجرد امتحان إلى منازل و درجات وراءها، و أن الدنيا مجرد عبور إلى تلك المنازل و الدرجات الباقية.. و أن الدنيا كالخيال و أن الله هو الضمان الوحيد في رحلة النيا و الآخرة.. و أنه لا حاكم و لا

مقدر سواه.. و لو اجتمع الناس على أن يضروك لما استطاعوا أن يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك، و إن اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لما استطاعوا أن ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك.

و لهذا فإن المؤمن لا يفرح لكسب و لا ييأس على خسران، و إذا دهمه ما يكره قال في نفسه: ((و عسى أن تكرهوا شيئا و هو خير لكم و عسى أن تحبوا شيئا و هو شر لكم و الله يعلم و أنتم لاتعلمون))

و الله عنده حكيم عادل رحيم لا يقضي بالشر إلا بسبب و لحكمة أو لفائدة و استحقاق عادل.

و هو لا يحسد أحدا و لا يغبط أحدا، بل هو مشفق على الناس مما هم فيه من غفلة، يقول له قلبه:

((لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد.. متاع قليل ثم مأواهم جهنم و بئس المهاد)) (١٩٦- ١٩٧ آل عمران)

((أيحسبون أنما نمدهم به من مال و بنين.. نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون)) (٥٥-٥٦ المؤمنون)

((إنما نملي لهم ليزدادوا إثما)) (١٨٧- آل عمران)

((ما أصاب من مصيبة في الأرض و لا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير.. لكيلا تأسوا على ما فاتكم و لا تفرحوا بما آتاكم و الله لا يحب كل مختال فخور)) (٢٢-٢٣ الحديد)

((قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا))

و ثمرة تلك الآيات عند المؤمن هي السكينة و الهدوء النفسي و اطمئنان البال و الثقة في حكمة الله و عدله و رحمته و تصريفه.

و مثل هذا المؤمن كلما ترك شهوة من شهواته، وجد عوضا لها حلاوة في قلبه، مما يلقى من التحرر الداخلي من أغلال نفسه و مما يجد من النور في بصيرته.

و هو يترك السعي إلى الحظوظ للسعي إلى الحقوق و يترك الدعاوى إلى الأوامر.

و يترك أهواء النفس إلى وجه الحق.

و يكف عن التلهف و الحركة وراء الأغراض و المناصب و الرياسات و المغانم و يسكن إلى جنب الله.. و هل بعد الله مغنم؟!!

و من صفات هذا المؤمن العامل لوجه الله أنه ناهض بالهمة على الدوام لا يفتر و لا يكسل و لا يتواكل، بينما يفتر من يعمل للأجرو يفتر من يعمل للخوف ((يخدع الأول نفسه بالاستكفاء و يخدع الثاني نفسه بالتمني)) أما القاصد وجه ربه فإنه لا يفتر لأنه لم يربط جهاده بأجر و هو لا يكسل متواكلا على مغفرة لأنه لا يتحرك بالخوف من عقاب و إنما هو عبد محب متطوع، العمل عنده سعادة، لهذا لا تجده متبرما و لا متسخطا و إنما هو دائما طلق الوجه مشرق البسمة متفائل، حماد لربه في جميع الحالات لا يسب الدهر و لا ينسب لربه نقصا و لا قصورا.

و هذه التركيبة النفسية النادرة هي ثمرة الايمان بالقرآن و هي ثمرة التوحيد.. و التوحيد يجمع عناصر النفس و يوحد اتجاه المشاعر نحو مصدر واحد للتلقي فيؤدي بذلك إلى أثر تركيبي بنائي في الشخصية بعكس تعدد الآلهة و تعدد مصادر الخوف و النفع و الضرر فإنه يؤدي إلى توزع المشاعر و انقسام النفس و تشتت الانتباه إلى العديد من الجهات، و يؤدي بذلك إلى تفكيك رباط الشخصية.

و القارئ للقرآن الكريم يخرج بعلم نفس قرآني متميز بديع و منفرد في تربيته للمسلم.

و ليس عجيبا أن القرآن أقام حضارة و صنع تاريخا.. فإنه قبل ذلك أقام إنسانا و ربى نفسا بديعة سوية متفردة في تكاملها و أشرق عليها بسكينة لا مثيل لها.

و مثل تلك التربية الفذة تشهد للقرآن بأنه خرج من المشكاة الإلهية.. فلا مرب مثل الرب.

و لهذا يختلف علم النفس و علم النفس القرآني في علاج الأمراض النفسية. فعلم النفس لا يرى إمكانا لتبديل النفس أو تغييرها جوهريا لأن النفس تأخذ شكلها النهائي في السنوات الخمس الأولى من الطفولة.. و لا يبقى للطبيب النفسي دور سوى إخراج المكبوت فيها إلى الوعي.. أو فتح نوافذ للتنفيس و التعبير و تخفيف الغليان الداخلي.. و بهدف الوصول إلى ذلك يلجأ الطبيب النفسي إلى العلاج بالتنويم المغناطيسي أو العلاج بالإيحاء أو بالتنفيس و التعبير و الفن و اللعب أو العلاج بالاستغراق في عمل آلي أو العلاج بالإشباع المباشر.

و كل هذه الصور أشبه بعلاج السرطان بالمراهم أو المسكنات لأنها لا تحاول أن تغير من النفس شيئا، فكلها تقبل وجود الدمل النفسي على حاله ثم تقول للمريض.. اصر خ أو تأوه أو ارقص أو غني لتنفس عن آلامك.. أو تضع يده على الدمل و تقول له.. هنا الدمل.. و هذا كل جهدهم.

أما الدين فيقول بإمكانية تبديل النفس و تغييرها جوهريا و يقول بإمكانية إخراجها من ظلمة البهيمية إلى أنوار الحضرة الإلهية و من حضيض الشهوات إلى ذروة الكمالات الخلقية و ذلك بالرياضة و المجاهدة.

و يكون ذلك على مراحل.. أولها: تخلية النفس من عاداتها المذمومة و ذلك بالاعتراف بالذنوب و العيوب و إخراج هذه العيوب إلى النور كما قال موسى لربه بعد قتل المصري خطأ:

((رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له)) (١٦- القصص)

و كما نادى يونس في الظلمات:

((لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين)) (٨٧- الأنبياء)

و المرحلة الثانية: هي التوبة و قطع الصلة بالماضي و الندم على ما فات و مراقبة النفس فيما يستجد من أمور و محاسبتها على الفعل و الخاطر.

و المرحلة الثالثة: هي مجاهدة الميول النفسية المريضة بأضدادها. و ذلك برياضة النفس الشحيحة على الإنفاق و إكراه النفس الشهوانية على التعفف، و دفع النفس الأنانية إلى البذل و التضحية و الإيثار، و حث النفس المختالة المزهوة على التواضع و الانكسار، و استنهاض النفس الكسولة إلى العمل.. و بمعالجة الضد بالضد تصل النفس إلى الوسط العدل.. و هو صراط الحكمة.. و هو حظ الصالحين من البشر.

و لا تنجح تلك الرياضة دون طلب المدد و العون من الله و دون الصلاة و الخشوع و الخضوع و الفناء في محبة الله ركوعا و سجودا في توحيد كامل(و توحيد الله لا يكون إلا بطاعته الكاملة و الاسترسال معه.. لا تريد لنفسك إلا ما يطلبه هو لك) و هنا تحدث المعجزة.. فيتبدل القلق سكينة و الفزع طمأنينة و الخسة الشهوانية عفة و طهارة.. و النواقص النفسية كمالات.

و ذروة العلاج النفسي هي((الذكر)) ذكر الله بالقلب و اللسان و الجوارح و السلوك و العمل.. و استشعار الحضرة الإلهية على الدوام و طوال الوقت في كل قول و فعل.

و في الذكر شفاء و وقاية و أمن و طمأنينة لأن الذكر يعيد الصلة المقطوعة بين العبد و الرب و يربط النفس بمنبعها و يرد الصنعة إلى صانعها.. حيث هو الأعلم بعيوبها و الأقدر على علاجها.

((ادعوني استجب لكم)) (٦٠- غافر)

((فاذكروني أذكركم)) (١٥٢- البقرة)

فيعود النور ليغمر ظلام النفس و يحل العمار مكان الخراب.

و بينما يرى فرويد (الطيبة) تخاذلا و سلبية و ينصح مريضه قائلا له: ((كل و إلا فأنت مأكول)).

نرى نحن الطيبة قوة إيجابية.. و نأمر بالصفح:

((فاعفوا و اصفحوا)) (١٠٩- البقرة)

((فاصفح الصفح الجميل)) (٨٥- الحجر)

((و أن تعفوا أقرب للتقوى)) (٢٣٧- البقرة)

و بينما يرى فرويد من الأعمال مايساعد على تفريغ و تنفيس الغليان النفسي.. نشترط نحن العمل الصالح.

و بينما يرى أن ماضي الطفولة حاكم على كل إنسان و موجه لأفعاله لا نقول نحن بحاكم إلا الله.. و نقول إننا بفضل الله يمكن أن نخرج من أي حكم، و بينما يقول بفطرة عدوانية و بغريزة التحطيم و الهدم و بالطاقة الشهوانية كدوافع رئيسية، نقول نحن: إن الإنسان فُطر حرا مختارا بين النوازع السالبة و الموجبة يختار ما يشاء منذ البداية.

و سبب كل هذه المادية الفرويدية و مادية علم النفس بوجه عام هو أنهم يتعاملون مع النفس الإنسانية على أنها مادة وجسد يمكن اقتحامه بالتشريح و التجربة.. و هم يفعلون هذا عن إيمان بأنه لا روح هناك و لا ذات و لا نفس.. و إنما مجموعة مركبات كيميائية و جينات وراثية اسمها الإنسان و تلك هي خطيئة الحضارة المادية، فهذا التصور أبعد ما يكون عن الصواب لأن النفس الإنسانية ((ذات)) قبل كل شيء و لا يمكن إحالتها إلى موضوع مجرد.. و هي كالحياة إذا أعملت فيها مبضع التشريح ماتت في يدك.. و النفس دائما تستخفي على النظرة التحليلية و تتنكر بما تطرح في الظاهر من ردود أفعال سلوكية و هي لا تعطي سرها أبدا حتى لصاحبها إذا بدأ يتدبرها كموضوع، لأنها ليست موضوعا بل هي في جوهرها ((ذات)) بكر إذا فضضت بكارتها و هتكت استسرارها و حاولت أن تقتحمها بالنظرة الموضوعية استعصت عليك و تفلتت منك بمجموعة من البدائل السلوكية الخادعة و تحولت إلى شيء آخر.. و لم تعد ((هي)).

و يظل دائما الفارق بين ما ترى منها في الظاهر و ما خفى عليك من حقيقتها، كالفارق الهائل بين الجسد الظاهر و الروح التي تسكنه.. و أنت لن تصل أبدا إلى كنه الروح بتشر يح الجسد.. و إنما أنت على أحسن الفروض سوف تفهم الجسد أكثر فأكثر و لكنك تظل دائما بعيدا كل البعد عن إدراك سر الروح و لغزها.

((و يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي و ما أوتيتم من العلم إلا قليلا))
(٨٥- الإسراء)

(لماذا تمرض نفوسنا؟!!)

المؤمن لا يعرف شيئا اسمه المرض النفسي لأنه يعيش في حالة قبول و انسجام مع كل ما يحدث له من خير و شر.. فهو كراكب الطائرة الذي يشعر بثقة كاملة في قائدها و في أنه لا يمكن أن يخطئ لأن علمه بلا حدود، و مهاراته بلا حدود.. فهو سوف يقود الطائرة بكفاءة في جميع الظروف و سوف يجتاز بها العواصف و الحر و البرد و الجليد و الضباب.. و هو من فرط ثقته ينام و ينعس في كرسيه في اطمئنان و هو لا يرتجف و لا يهتز اذا سقطت الطائرة في مطب هوائي أو ترنحت في منعطف أو مالت نحو جبل.. فهذه أمور كلها لها حكمة و قد حدثت بارادة القائد و علمه و غايتها المزيد من الأمان فكل شيء يجري بتدبير و كل حدث يحدث بتقدير و ليس في الامكان أبدع مما كان.. و هو لهذا يسلم نفسه تماما لقائده بلا مساءلة و بلا مجادلة و يعطيه كل ثقته بلا تردد و يتمدد في كرسيه قرير العين ساكن النفس في حالة كاملة من تمام التوكل.

و هذا هو نفس احساس المؤمن بربه الذي يقود سفينة المقادير و يدير مجريات الحوادث و يقود الفلك الأعظم و يسوق المجرات في مداراتها و الشموس في مطالعها و مغاربها.. فكل ما يجري عليه من أمور مما لا طاقة له بها، هي في النهاية خير.

اذا مرض و لم يفلح الطب في علاجه.. قال في نفسه.. هو خير.. و اذا احترقت زراعته من الجفاف و لم تنجح وسائله في تجنب الكارثة.. فهي خير.. و سوف يعوضه الله خيرا منها.. و اذا فشل في حبه.. قال في نفسه حب فاشل خير من زيجة فاشلة.. فاذا فشل زواجه.. قال في نفسه الحمد لله أخذت الشر و راحت.. و الوحدة خير لصاحبها من جليس السوء.. و اذا أفلست تجارته قال الحمد لله لعل الله قد علم أن الغنى سوف يفسدني و أن مكاسب الدنيا ستكون خسارة علي في الآخرة.. و اذا مات له عزيز.. قال الحمدلله.. فالله أولى بنا من أنفسنا و هو الوحيد الذي يعلم

متى تكون الزيادة في أعمارنا خيرا لنا و متى تكون شرا علينا.. سبحانه لا يسأل عما فعل.

و شعاره دائما: (و عسى أن تكرهوا شيئا و هو خير لكم و عسى أن تحبوا شيئا و هو شر لكم و الله يعلم و أنتم لاتعلمون)

و هو دائما مطمئن القلب ساكن النفس يرى بنور بصيرته أن الدنيا دار امتحان و بلاء و أنها ممر لا مقر، و أنها ضيافة مؤقتة شرها زائل و خيرها زائل.. و أن الصابر فيها هو الكاسب و الشاكر هو الغالب.

لا مدخل لوسواس على قلبه و لا لهاجس على نفسه، لأن نفسه دائما مشغولة بذكر العظيم الرحيم الجليل و قلبه يهمس: الله.. الله.. مع كل نبضة، فلا يجد الشيطان محلا و لا موطئ قدم و لا ركنا مظلما في ذلك القلب يتسلل منه.

و هو قلب لا تحركه النوازل و لا تزلزله الزلازل لأنه في مقعد الصدق الذي لا تناله الأغيار.

و كل الأمراض النفسية التي يتكلم عنها أطباء النفوس لها عنده أسماء أخرى:

الكبت اسمه تعفف

و الحرمان رياضة

و الاحساس بالذنب تقوى

و الخوف (و هو خوف من الله وحده) عاصم من الزلل

و المعاناة طريق الحكمة

و الحزن معرفة

و الشهوات درجات سلم يصعد عليها بقمعها و يعلو عليها بكبحها الى منازل الصفاء النفسي و القوة الروحية

و الأرق.. مدد من الله لمزيد من الذكر.. و الليلة التي لا ينام فيها نعمة تستدعي الشكر و ليست شكوى يبحث لها عن دواء منوم فقد صحا فيها الى الفجر و قام للصلاة

و الندم مناسبة حميدة للرجوع الى الحق و العودة الى الله
و الآلا م بأنواعها الجسدي منها و النفسي هي المعونة الالهية التي يستعين بها على غواية الدنيا فيستوحش منها و يزهد فيها
و اليأس و الحقد و الحسد أمراض نفسية لا يعرفها و لا تخطر له على بال
و الغل و الثأر و الانتقام مشاعر تخطاها بالعفو و الصفح و المغفرة
و هو لا يغضب الا لمظلوم و لا يعرف العنف الا كبحا لظالم
و المشاعر النفسية السائدة عنده هي المودة و الرحمة و الصبر و الشكر و الحلم و الرأفة و الوداعة و السماحة و القبول و الرضا

تلك هي دولة المؤمن التي لا تعرف الأمراض النفسية و لا الطب النفسي..

و الأصنام المعبودة مثل المال و الجنس و الجاه و السلطان، تحطمت و لم تعد قادرة على تفتيت المشاعر و تبديد الانتباه.. فاجتمعت النفس على ذاتها و توحدت همتها، و انقشع ضباب الرغبات و صفت الرؤية و هدأت الدوامة و ساد الاطمئنان و أصبح الانسان أملك لنفسه و أقدر على قيادها و تحول من عبد لنفسه الى حر بفضل الشعور بلا اله الا الله.. و بأنه لا حاكم و لا مهيمن و لا مالك للملك الا واحد، فتحرر من الخوف من كل حاكم و من أي كبير بل ان الموت أصبح في نظره تحررا و انطلاقا و لقاء سعيد بالحبيب.

اختلفت النفس و أصبحت غير قابلة للمرض.. و ارتفعت الى هذه المنزلة بالايمان و الطاعة و العبادة فأصبح اختيارها هو ما يختاره الله، و هواها ما يحبه الله.. و ذابت الأنانية و الشخصانية في تلك النفس فأصبحت أداة عاملة و يدا منفذة لارادة ربها. و هذه النفس المؤمنة لا تعرف داء الاكتئاب، فهي على العكس نفس متفائلة تؤمن بأنه لا وجود للكرب مادام هناك رب.. و أن العدل في متناولنا مادام هناك عادل.. و أن باب الرجاء مفتوح على مصراعيه مادام المرتجى و القادر حيا لا يموت.

و النفس المؤمنة في دهشة طفولية دائمة من آيات القدرة حولها و هي في نشوة من الجمال الذي تراه في كل شيء.. و من ابداع البديع الذي ترى آثاره في العوالم من المجرات الكبرى الى الذرات الصغرى.. الى الالكترونات المتناهية في الصغر.. و كلما اتسعت مساحة العلم اتسع أمامها مجال الادهاش و تضاعفت النشوة.. فهي لهذا لا تعرف الملل و لا تعرف البلادة أو الكآبة.

و حزن هذه النفس حزن مضيء حافل بالرجاء، و هي في ذروة الألم و المأساة لا تكف عن حسن الظن بالله.. و لا يفارقها شعورها بالأمن لأنها تشعر بأن الله معها دائما، و أكثر ما يحزنها نقصها و عيبها و خطيئتها.. لا نقص الآخرين و عيوبهم.. و لكن نقصها لا يقعدها عن جهاد عيوبها.. فهي في جهاد مستمر و في تسلق مستمر لشجرة خطاياها لتخرج من مخروط الظل الى النور المنتشر أعلى الشجرة لتأخذ منه الحياة لا من الطين الكثيف أسفل السلم.

انها في صراع وجودي و في حرب تطهير باطنية.. و لكنه صراع هادئ واثق لا يبدد اطمئنانها و لا يقتلع سكينتها لأنها تشعر بأنها تقاتل باطلها بقوة الله و ليس بقوتها وحدها.. و الاحساس بالمعية مع الله لا يفارقها، فهي في أمن دائم رغم هذا القتال المستمر لأشباح الهزيمة و لقوى العدمية بداخلها.. فهي ليست وحدها في حربها.

ذلك هو الجهاد الأكبر الذي يشغل النفس عن التفاهات و الشكايات و الآلام الصغيرة و يحفظها من الانكفاء على ذاتها و الرثاء لنفسها و الاحتفاء بمواهبها.. فهي مشغولة عن نفسها بتجاوز نفسها و تخطي نفسها و العلو على ذاتها.. فهي في رحلة خروج مستمرة.. رحلة تخطي و صعود، و دستورها هو: (أن تقاوم أبدا ما تحب و تتحمل دائما ما تكره)

و مشاعر هذه النفس منسابة مع الكون متآلفة مع قوانينه متوافقة مع سننه متكيفة بسهولة مع المتغيرات حولها.. فيها سلاسة طبيعية و بساطة تلقائية.. تلتمس

الصداقة مع كل شيء.. و مثالها الكامل هو النبي محمد صلى الله عليه و سلم حينما كان يحتضن جبل أحد و يقول: هذا جبل يحبنا و نحبه.. فالمحبة الشاملة هي أصل جميع مشاعرها.. انها في صلح دائم مع الطبيعة و مع القدر و مع الله.. و الوحدة بالنسبة لهذه النفس ليست وحشة بل أنس.. و ليست خواء بل امتلاء.. و ليست فراغا بل انشغال.. و ليست صمتا.. بل حوار داخلي و استشراف نوراني.. و هي ليست وحدة بل حضن آمن.. و عذابها الوحيد هو خطيئتهاو احساسها بالبعد و الانفصال عن خالقها.. و هو عذاب يخفف منه الايمان بأن الله عفو كريم تواب يحب عباده الأوابين المستغفرين.. و هي أقرب ما تكون الى ربها و هي ساجدة ذائبة حبا و خشوعا.. يقول بعض الأولياء الصالحين: نحن في لذة لو عرفها الملوك لقاتلونا عليها بالسيوف، و لكن أنى للملوك أن يعرفوها و هم غرقى الدنيا و سجناء ماديتها.

ان السبيل الى ميلاد تلك النفس و خروجها من شرنقتها الطينية هو الدين و الطاعة و المجاهدة و لا يوجد سبيل آخر لميلادها.. فالعلم لا يلد الا غرورا و الفن لا يلد الا تألها.. و الدين وحده هو المحضن الذي تتكامل فيه النفس و تبلغ غايتها.

و بين العلماء مرضى نفوس مشغولون باختراع القنابل و الغازات السامة.

و بين الفنانين متألهون غرقى اللذائذ الحسية

و الدين وحده هو سبيل النفس الى كمالها و نجاتها و شفائها

و النفس المؤمنة نفس عاملة ناشطة في خدمة اللآخرين و نجدتهم لا يقطعها تأملها عن الشارع و السوق و زحام الأرزاق.. و العمل عندها عبادة.. و العرق و الكدح علاج و دواء و شفاء من الترف و أمراض الكسل و التبطل.. حياتها رحلة أشواق و مشوار علم و رسالة خدمة.. و العمل بابها الى الصحة النفسية.. و منتهى أملها أن تظل قادرة على العمل حتى النفس الأخير و أن تموت و هي تغرس شجرة أو تبني جدارا أو توقد شمعة.. تلك النفس هي قارب نجاة، و هي في حفظ من أي مرض نفسي، و لا حاجة بها الى طب هذه الأيام، فحياتها في ذاتها روشتة سعادة..

(مخير أم مسير)

القرآن معمار فريد.. نسيج وحده.. في الطريقة التي تصف بها الألفاظ في رصف خاص يفجر ما بداخلها من نغم، و هو نغم لا ينبع من حواشي الكلمات و أوزانها و قوافيها و إنما من باطنها بطريقة محيرة مجهولة تماما.. و بطريقة تؤدي إلى خشوع المستمع و إدراكه الغامض للمصدر الجليل الذي جاءت منه.

فنحن نصبح أسرى للقرآن بمجرد الاستماع إليه.. و قبل أن نتعقل كلماته، فإذا بدأنا نتأمل و نتعقل و نحلل و نعكف على الكلمات فسوف تنفتح لنا كنوز من المعاني و المعارف و الأفكار تحتاج إلى مجلدات لشرحها، و لذلك سوف أكتفي بوقفات قليلة أمام بعض المشكلات الأزلية.. كيف تناولها القرآن؟ و ماذا قال فيها؟

و أولاها مشكلة الحرية.

و الحرية ثغرة كبيرة يدخل منها الشك و يتسلل منها هواة الجدل من الملحدين.. فأول ما يقوله الواحد منهم ليقيم الحجة على الدين كله أن يهتف محتجا:

((إذا كان الله قدر علي أفعالي. فلماذا يحاسبني؟))

((و إذا كان كل شيء يجري في الدنيا بمشيئة الله فما ذنبي؟))

و السؤال يطرح معضلة بالفعل.

و قد أوصى النبي – صلى الله عليه و سلم – أصحابه بعدم الدخول في جدل.

و قال لهم إذا جاء ذكر القدر فأمسكوا..

لأنه علم أن المعضلة من المعضلات الفلسفية العالية التي لا يتيسر الرد عليها بعلوم عصره.. و أن الجدل سوف ينزلق بهم إلى متاهة يضيعون فيها.. و لذا فضل الإيمان بالقلب على الثرثرة العقلية العقيمة..

و هي وصية لا تنسحب تماما على عصرنا، الذي دخلت فيه الفلسفة الجامعات درسا ميسرا يتلقاه ابن العشرين كل يوم.

و بذلك أصبح السؤال مطروحا بشدة.. و في حاجة إلى جواب و رد شاف من الفلسفة و من الدين و من صميم القرآن ذاته.

و من النظرة المبدئية للعالم بما فيه من أرض و سماوات و نجوم و كواكب نرى أنه يقوم على سلسلة محكمة من الأسباب و المسببات، و أن كل شيء فيه يجري بنظام محكم.. و إن كان لديك

ورقة و قلم فإنك تستطيع أن تحسب بالضبط متى تشرق الشمس و متى تغرب، لأنها تتحرك حسب قانون.. و كل شيء في الدنيا يتحرك حسب قانون.

إلا الإنسان.. فإنه يشعر بأنه يمشي (على كيفه).

الإنسان وحده هو الحر المتمرد الثائر على طبيعته و ظروفه، و لهذا يصطدم بالعالم و يصارعه.. و يستحيل في أي لحظة أن يتنبأ أحد بمصيره.

و حكاية الحتمية الداخلية التي تصورها (فرويد) فاعتبر الإرادة بسببها حرة في الظاهر لكن مقيدة في الباطن و أسيرة لجبرية الغرائز و آلية الحوافز الباطنة.. عاد هو ذاته فنقضها و قال: إن الغريزة هي خام غفل تتصرف فيه الإرادة بالكبت أو بالإطلاق أو بالتسامي.

و هكذا عادت الغريزة لتصبح مجرد ظرف تتحكم فيه الإرادة كما تتصرف الإرادة في الظروف الخارجية و تتحكم فيها.. و أصبحت الإرادة بهذا المعنى حقيقة متعالية متجاوزة للغرائز.

و بالمثل حكاية الحتمية الطبقية التي أثارها (الماركسيون) .. فاعتبروا كل إنسان ابن طبقته.. تحدد له طبقته حوافزه النفسية و عواطفه و رغباته و شخصيته السلوكية.. فهو يتصرف كنبيل أو إقطاعي أو (كبروليتاري) لا كفلان الفلاني. بل هو لا يكاد يملك نفسا فما يتخيل أنه نفس مستقلة بداخله، ما هي في الحقيقة إلا مجموعة من الأنماط السلوكية التي استعارها من طبقته.. إنها الحتمية الطبقية تعمل من خلاله.. و ما هو إلا وسيط تظهر من خلاله القوى الإجتماعية اللامعقولة في تصارعها.

و هي نظرة أوقعت الفكر الماركسي و علم النفس الطبقي في أشد التناقض.. فكيف نفسر سلوك رجل مثل (تولستوي) و هو من النبلاء الإقطاعيين بحكم الوراثة و هو مع ذلك لم يتصرف أبدا كنبيل و لا كإقطاعي، بل تصرف كطليعة الفقراء و الفلاحين محطما بذلك تلك الحتمية التي سماها ((علم النفس الطبقي)). و بالمثل (باكونين) و (كروبتكين) طليعة الفوضوية و كانا من كبار الأعيان. و (ماركس) ذاته ابن الطبقة البورجوازية الذي انقلب على الطبقة البورجوازية.

و ماذا نقول عن الفلاح الذي يهمل تنقية الدودة في مزرعة تعاونية.. و العامل الذي يهمل صيانة الأوتوبيسات في قطاع عام.

إن هذ الحتمية التي يصورها علم النفس الطبقي هي كلام غير دقيق و غير علمي.

و الحقيقة أن النفس الإنسانية انفردت دون صنوف الوجود المادي، بأنها تملك قدرة داخلية على التملص من اللابد و اللازم.. و الضروري.. و المحتوم.. و أن الإرادة الإنسانية لها حريتها في أن تخل بأي تعاقد.. و يستحيل التنبؤ بما يجري في منطقة الضمير.. لأنها منطقة حرة بالفعل.

لا شيء يحول بين الإنسان و بين أن يضمر شيئا في نفسه. إنه المخلوق الوحيد الذي يملك ناصية أحلامه.

و لكن هذه الحرية البكر الطليقة في الداخل ما تلبث أن تصطدم بالعالم حينما تحتك به لأول مرة في لحظة الفعل.

إن رغبتنا تظل حرة مادامت كامنة في الضمير و النية.. فإذا بدأنا التنفيذ اصطدمنا بالقيود.. و أول قيد نصطدم به هو جسدنا نفسه الذي يحيط بنا مثل (الجاكتة الجبس) و يحصرنا بالضرورات و الحاجات و يطالبنا بالطعام و الشراب ليعيش و يستمر و لا نجد مهربا من تلبية هذه المطالب. فنجري خلف اللقمة و نلهث خلف الوظيفة و نضيع في صراع التكسب و نفقد بعض حريتنا.. بعضها و ليس كلها.. و هو ثمن ضروري، فرغباتنا لا تستطيع أن تعلن عن نفسها بدون جسد، و جسدنا هو أداة حريتنا كما أنه القيد عليها. و ليس جسدنا وحده بل أجساد الآخرين أيضا أدواتنا، فنحن ننتفع بما يصنعه العامل و ما يزرعه الفلاح و ما يخترعه المخترع و ما يكتبه الكاتب و كل هذه ثمار أجساد الآخرين و حرياتهم.

إن المجتمع أداة هائلة موضوعة في خدمتنا بما فيه من بريد و مواصلات و نور و مياه و صناعات و علوم و معارف.

و حينما يركب أحدنا قطارا فإنه يركب في الوقت نفسه على حرية مجهزة أعدها له آلاف العمال و المهندسين و المخترعين و هو يدفع في مقابل هذا الكسب ضريبة من حريته.

و ليس المجتمع وحده هو الذي يتقضاه ضرائب و لكن الكون كله.. جاذبية الأرض و ضغط الهواء و مياه المحيطات و السماء بكواكبها.. كلها تحاصره و تحاصر حريته و تطالبه بنوع من الوفاق معها.

و هو بالوفاق يربح حريته دائما.

بالوفاق مع العالم يمتطيه كما يمتطي الجواد.

فهو حينما يفطن إلى اتجاه الريح و يضع شراعه في مواجهتها يمتطي الريح و يسخرها لخدمته.. و حينما يفطن إلى أن الخشب يمتطي الماء.. و بالمثل حينما يفطن إلى نفع الناس، و يسير في اتجاههم يكسب الناس و يكسب معونتهم.

إن الإنسان يعيش مضطربا بين عالمين: عالم إرادته الحرة بداخله.. و عالم المادة حوله الراسف المغلول في القوانين.

و سبيله الوحيد إلى فعل حر هو معرفة هذه القوانين و الفطنة إلى استغلالها بالوفاق معها.. و هو دائما أمر ممكن.

و لهذا فالحرية حقيقة لا تنفيها المقاومات و الظروف الخارجية، بل إن هذه المقاومات تؤكد الحرية فلا يمكن أن تكشف حريتنا عن مدلولها في الخارج إلا بوجود عقبات تزحزحها و تتغلب عليها.. إنها تكشف عن مدلولها من خلال صراع و بدون هذا الصراع لا يقوم لها معنى.

و الضوابط الخلقية و القوانين الاجتماعية لا تنفي الحرية و إنما هي أشبه بعلامات المرور.. وضعت لتننظم المرور و تفسح أكبر حرية للكل.

و أنت حينما تقيم الضوابط على شهوتك تكسب حريتك لأنك تصبح سيد نفسك لا عبدا لغريزتك.

أما حرية القمار و السكر و العربدة و المخدرات و التبذل الجنسي فهي ليست حريات و إنما درجات من الانتحار و إهدار الحياة و بالتالي إهدار الحرية.

و كل اختيار ضد الحياة لا يكون اختيارا.

و كل اختيار ضد القانون الطبيعي ليس اختيارا و إنما إهدار للاختيار، و كلنا نعلم أننا إذا أردنا أن نزداد حرية و نحن نسبح اخترنا السباحة مع التيار و ليس ضده.

نخلص من هذا إلى أن حرية الإنسان حقيقة برغم ما يقوم حولها من حدود و مقاومات.. و أن الإنسان حر حرية مطلقة في منطقة ضميره، فهو يستطيع أن يضمر ما يشاء.. و حر حرية نسبية في التنفيذ، في منطقة الفعل و العمل.. بحسب ما يقوم حوله من حدود و مقاومات.

و يبقى بعد ذلك اللغز الأزلي في علاقة الإنسان بالله.. و علاقة حرية الإنسان بالإرادة الإلهية المطلقة.

و لأن القرآن كتاب دين و ليس كتاب فلسفة فإنه يكتفي بالومض و الرمز و الإشارة و اللمحة.

فيقرر أولا أن حرية الإنسان كانت بمشيئة الله و رغبته و مراده.. و أن ما يجري من حرية الإنسان لا يجري إكراها للخالق و لا إكراها للمخلوق، و إنما بهذا قضت المشيئة.

و يقول القرآن في وضوح:

((و لو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين)) (٩٩ – يونس)

لقد رفض الله أن يكره الناس على الإيمان و كان هذا في إمكانه، و لكنه أراد للإنسان أن يكون حرا مختارا، يختار الإيمان أو الكفر كما يشاء:

((و قل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن و من شاء فليكفر..)) (٢٩ – الكهف)

((لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي..)) (٢٥٦ – البقرة)

((و لو شئنا لآتينا كل نفس هداها..)) (١٣ – السجدة)

((و أما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى..)) (١٧ – فصلت)

إن الله يتركنا و لو اخترنا العمى على الهدى.. و قد سبقت بهذا مشيئته. بل فعل بنا أكثر من هذا، فخيرنا حتى في أن نختار.. عرض علينا هذه الأمانة (و هي الحرية و المسئولية) عرضها لنقبلها أو نرفضها كما نشاء و هي الأمانة التي رفضتها الجبال فحمل الإنسان الأمانة التي رفضتها الجبال. و كان بنفسه جهولا ظلوما:
((إنا عرضنا الأمانة على السماوات و الأرض و الجبال فأبين أن يحملنها و أشفقن منها و حملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا)) (٧٢ – الأحزاب)

لقد جهل الإنسان تبعة هذه الأمانة و أهوالها و مهالك الغرور التي سوف يتعرض لها بحملها.. و كيف أنه سيظلم بها نفسه و غيره.. و لكن الله كان يعلم بهذه المحنة الهائلة.. و كان يعلم أن هذه المحنة سوف تزكي الإنسان و تطهره و تربيه:

((و إذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء و نحن نسبح بحمدك و نقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون)) (٣٠ – البقرة)

و لا نعرف كيف تم هذا العرض على الإنسان بأن يكون حرا أو لا يكون، و لا متى تم هذا العرض.. هل حدث في مبدأ الخلق مع آدم.. أم مع الأرواح قبل نزولها إلى الأرحام.. فهذا غيب مطلق.

و القرآن يكتفي بأن يعطي ومضة، و لمحة..

و بهذه الحرية التي قبلها الإنسان مختارا حقت عليه المسئولية و المحاسبة، و أشار القرآن لهذا في آيات حاسمة قاطعة:

((كل نفس بما كسبت رهينة)) (٣٨ – المدثر)

((كل امرئ بما كسب رهين)) (٢١ – الطور)

((و كل إنسان ألزمناه طائره في عنقه..)) (١٣ – الإسراء)

((قل لا تسألون عما أجرمنا و لا نسأل عما تعملون)) (٢٥ – سبأ)

((و لا تزر وازرة وزر أخرى..)) (١٥ – الإسراء)

و لا يستطيع أحد أن يفتدي آخر أو يحمل عنه ذنبه و إنما لكل عمله و على كل وزره.

و بمقتضى هذه الحرية جعل الله من ((ضمير الإنسان و نيته و سريرته)) منطقة محرمة و قدس أقداس.. لا يدخلها قهر أو جبر.. و قطع على نفسه عهدا بأن تكون هذه المنطقة حراما لا يدخلها جنده.

فالمبادرة بالنية حرة تماما.

و كل منا له أن يضمر و ينوي و يسر في سريرته ما يشاء، و إنما يبدأ التدخل الإلهي لحظة خروج النية إلى حيز الفعل. فيعطي الله لكل إنسان تيسيرات من جنس نيته و من جنس ضميره و قلبه.. و هو عين العدل.. ليكون الفعل بعد هذا معبرا عن دخيلة فاعله:

((فأما من أعطى و أتقى (٥) و صدق بالحسنى (٦) فسنيسره لليسرى (٧) و أما من بخل و استغنى (٨) وكذب بالحسنى (٩) فسنيسره للعسرى (١٠))) (الليل)

ها هنا وعد آخر من الله بأن يجعل تيسيرات الأفعال مطابقة لدخائل القلوب فيجد الشرير تيسيرات الشر، و يجد الخير تيسيرات الخير.. و من يعلم الله فيه الهدى يهديه، و من يعلم فيه الضلال يتركه للشياطين تضله:

((فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم و أثابهم فتحا قريبا)) (١٨ – الفتح)

و في آيات أخرى نراه يقول:

((و لو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم..)) (٢٣ – الأنفال)

((فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم..)) (٥ – الصف)

و لأن الله علم بكل شيء مسبقا.. و أحاط بكل شيء علما.. نراه يتكلم في القرآن عمن:

((حق عليهم القول..)) (٢٥ – فصلت)

((إن الذين سبقت لهم منا الحسنى..)) (١٠١ – الأنبياء)

((و منهم من حقت عليه الضلالة..)) (٣٦ – النحل)

((حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة و الناس أجمعين)) (١٣ – السجدة)

فقد علم مسبقا و سلفا أن الإنسان سيفسد في الأرض و سيسفك الدم و يظلم نفسه و يظلم الآخرين.. و يستحق بذلك درجات متفاوتة من العقوبة.

كل هذا كان في سابق علمه.

و ليس هذا بالجبر و لا بالحتم.. و لكن.. كما يحدث أن تتوسم في أحد أبنائك حب العلم و التحصيل فتمده بالتسهيلات و التيسيرات و تبعثه إلى الخارج في بعثة.. و ترى في الآخر العكوف على الفساد و صحبة السوء فتكتفي بما له من حظ محدود من التعليم في بلده.. و لو فعلت عكس ذلك لكنت ظالما، و لأكرهت أبناءك على غير طبائعهم.

كما أن هذا التوسم المسبق ليس فيه عنصر إكراه و لا جبر.. و إنما هو مجرد سبق علم.. فأنت تعلم مسبقا من أخلاق ولدك بأنه سوف ينصرف إلى اللعب و يهمل كتبه.. فإذا انصرف إلى اللعب بالفعل و أهمل كتبه فإن ذلك لا يكون إكراها منك و لا جبرا و لا عنوة و إنما لأن هذه طبيعته التي سبق علمك إليها.. و إنما تأتي التجربة فتكشف له نفسه.. و بذلك يحق عليه العقاب صدقا و عدلا.. فقد علم من نفسه ما لم يكن يعلمه:

((علمت نفس ما قدمت و أخرت)) (٥ – الانفطار)

و لهذا جاءت الدنيا لتكون حقل تجربة و اختبارا لمعادن النفوس:

((خلق الموت و الحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا..)) (٢ – الملك)

و حتى لا تكون لأحد أعذار في أفعاله فيقول لحظة الحساب فعلت كذا و كذا تحت تأثير العرف و التقاليد و البيئة و المجتمع و التربية.. إلخ.. إلخ.. حسم الله الموضوع فقال في القرآن:

((لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم و لكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم..)) (٢٢٥ – البقرة)

و في آية ثانية:

((و ليس عليكم جناح فيما أخطأتم به و لكن ما تعمدت قلوبكم..)) (٥ – الأحزاب)

و في آية ثالثة يحدثنا عن الذين ارتدوا إلى الكفر بعد إيمانهم و يهددهم بأشد العذاب ثم يستثني قائلا:

((إلا من أكره و قلبه مطمئن بالإيمان..)) (١٠٦ – النحل)

أي من كفر بلسانه تحت تأثير التعذيب و ظل قلبه مؤمنا.

إن ما يدور في القلب هو موضوع المحاسبة بالدرجة الأولى و ليس ما يجري على مسرح الفعل.

((يوم تُبلى السرائر)) (٩ – الطارق)

إن السريرة هي محل الابتلاء و محل المحاسبة.

و السريرة هي السر المتجاوز للظروف و المجتمع و البيئة و التربية كما أسلفنا في شرحنا المسهب.. فهي المبادرة المطلقة.. و الابتداء المطلق الذي أعتقه الله من كل القيود.

إنها روحك ذاتها و هي الكاشفة عن حقيقتك بمثل ما تكشف بصمة إصبعك عن فرديتك.

و روحك فيها من حرية الله لأنها نفخة منه:

((فإذا سويته و نفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين)) (٢٩ – الحجر)

و لأن فيك ذلك القبس من الله و لأنه كرمك بحرية الإرادة، فأنت محاسب على هذه الحرية، و هذا منتهى العطاء الإلهي و منتهى العدل أيضا.

و من هنا يأتي المزج بين الروح و بين الله في آيات عميقة الدلالة:

((و ما رميت إذ رميت و لكن الله رمى..)) (١٧ – الأنفال)

يأتيك النصر بيدك و بيد الله في ذات الوقت فتكون يدك لحظة الانتصار هي يد الله و رميتك رميته و مشيئتك مشيئته.

و من هنا قد يعترض معترض فيقول:

فلماذا لا تكون النية هي الأخرى مقدرة؟

و الجواب على ذلك يأتي من صميم القرآن:

((في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا..)) (١٠ – البقرة)

((كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب)) (٣٤ – غافر)

((و الذين اهتدوا زادهم هدى..)) (١٧ – محمد)

((فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم..)) (٥ – الصف)

((سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق..)) (١٤٦ – الأعراف)

و من هذا يتبين أن الله ترك المبادرة بالنية دائما لك ثم بعد ذلك يأتي قضاؤه فيزيدك مرضا إذا أضمرت المرض في قلبك و يهديك إذا بادرت في سريرتك بميل إلى هدى.. و يصرفك عن الهدى إذا أضمرت الكبر.

إن منطقة الضمير متروكة دائما لك لتبادر بما تشاء.. و بعد ذلك ينزل عليك القضاء و يحق عليك القول.

و الله لا يمكن أن يفرض عليك نية بالسوء أو بالظلم:

((إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون)) (٢٨ – الأعراف)

و هذا يدل على أن قانون الخلق الأول هو أن تكون الروح محرابا و قدس أقداس لا يدخلها قهر.. و لا يكرهها الله على شيء لا هو و لا جنده و لا أنبياؤه و لا أولياؤه إن النفس حرة منزهة.

إنها((السر الأعظم)) الذي لا يعلم به إلا الله يوم تبلى السرائر.

و في هذا يقول حديث نبوي شريف عن أبي بكر:

((لا يفضلكم أبوبكر بصلاة و لا بصيام و لكن بسر وقر في قلبه)).

و يقول الله في قرآنه:

((ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم..)) (١٠٩ – البقرة)

لم يخلق الله الحسد في قلوبهم و لم يودعه ضمائرهم، و لكنهم يحسدونكم اختيارا من عند أنفسهم.. و العبارة هنا صريحة ((من عند أنفسهم)).. و هي تنفي التدخل الإلهي و تقطع بوجود هذه المنطقة الداخلية التي تركها الله حرة.

و يقول الله تعالى مخاطبا الشيطان:

((إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين)) (٤٢ – الحجر)

إن الشيطان لا يستطيع أن يدخل قلبك إلا إذا فتحت له الباب اختيارا و كنت من الغاوين، و لكنه لا يستطيع أن يقتحم عليك قلبك جبرا و قسرا.

إن الله قد كفل لهذا لقلب الحماية و لم يجعل لأحد من جند الشر أو الخير سلطانا قاهرا عليه إلا إذا أراد صاحب هذا القلب اختيارا أن يستضيف و يدعو و يحتضن دواعي الشر أو دواعي الخير فحينئذ يكون له ما أراد.

نحن أمام قدس أقداس بالفعل.. و حرم محرم تقوم عليه الأسوار و لا يدخله حتم و لا جبر و لا إكراه.

و ما يحدث لنا من إكراه بالفعل في عالم الواقع لا يمكن أن يصل إلى داخل ضمائرنا.

يمكنك أن تجبرني بالقوة على أن أرفع يدي أو أقف مرغما أو اهتف باسمك، و لا يمكنك أبدا أن تجبرني على أن أحبك.

و لهذا لا تعطينا الأديان رخصة لنقول يوم الحساب إن فلانا أغراني أو فلانا أجبرني، أو فلانا أكرهني أملا في أن يلقي الواحد ذنبه على الآخر، فقد جعل الله من أعماق الضمير و السريرة منطقة حراما لا يستطيع أن يدخلها جبار بجبروته.

يمكنك أن تكره خادمك على فعل. و لكنك لا تستطيع أن تكرهه على أن يضمر شيئا في سريرة قلبه.

و القرآن يعتبرك حرا مسئولا مهما أحاطت بك ظروف الاستبداد فيقول إشارة إلى أمثال هذه الظروف:

((ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها..) (٩٧ – النساء)

لا أعذار.

حينما تقضي اللحظة أن تختار فأنت تختار نفسك بالفعل.

((إنا هديناه السبيل إما شاكرا و إما كفورا)) (٣ – الإنسان)

و في لفظ ((إما)) يبدو عنصر الاختيار واضحا محددا.

((و نفس و ما سواها (٧) فألهمها فجورها و تقواها (٨))) (الشمس)

أي فتح أمامها سبيل الخير و الشر و تركها أمام الطريقين لتختار.. و لهذا قال (فجورها و تقواها)، و لم يقل (أو تقواها) لأنه فتح الطريقين معا ليجعل للنفس الاختيار و لم يجبرها على أحد الطريقين.. و لذلك أردف موضحا:

((قد أفلح من زكاها (٩) و قد خاب من دساها (١٠))) (الشمس)

فرد الفلاح و الخيبة للنفس المخيرة، و في آية أخرى يوضح الأمر أكثر فيقول:

((و هديناه النجدين)) (١٠ – البلد)

أي هديناه مفترق طريقين يختار أيهما.

إن النية حرة.

و السريرة حرة في إضمارها لما تشاء.

أما الفعل فهو حر و مقدور في ذات الوقت.

و كل واحد منا له نصيبه من حرية الفعل.. و الذي يقول بالجبرية سوف يقع في مأزق حينما نسأله كيف يميز بين يده يحركها في حرية و يكتب بها ما يشاء.. و بين يده و هي أسيرة ترتعش قهرا في رجفة الحمى.. هنا أمامنا حالتان واضحتان، حرية في حالة الصحة، و جبرية في حالة المرض، و لو كانت الجبرية التي يقول بها صحيحة لما أمكن أن يميز بداهة بين الحالين.. و لما أمكن أن تقوم الحالتان أصلا.

إن حرية الفعل إذن حقيقة.. و القدر أيضا حقيقة.

و المشكلة هي أن نحاول أن نفهم هذا الازدواج و كيف لا يلغي القدر الحرية.. و كيف لا تلغي الحرية القدر.

و هذا أمر نستشفه من الآيات استشفافا.. فهي تلمح و لا تصرح حتى لا تُلقي بالناس في بلبلة.

يقول الله في كتابه:

((إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين)) (٤ – الشعراء)

لو شاء لفعل و لكنه لم يفعل.. لأنه لم يشأ أن يقهرنا على إيمان فتنتفي بذلك حرية الاختيار التي جعل منها جوهر وجودنا.. فقد أراد لنا أن نكون أحرارا نؤمن أو نكفر.

و لم يجعل الله إبليس إبليسا.

و إنما إبليس اختار لنفسه الكبرياء و الجبروت و التعاظم حينما رفض أن يكون في خدمة آدم مثل بقية الملائكة و قال:

((أنا خير منه خلقتني من نار و خلقته من طين)) (٧٦ – ص)

اختار إبليس لنفسه الغرور بغير علم و لا حق. فاختاره الله ليغرر بالناس و قضى عليه قضاء من جنس ضميره.

و بالمثل أبصر النقاء و الطهر في قلب محمد فاختاره نبيا للهداية:

((و الذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا..)) (٦٩ – العنكبوت)

و لهذا السبب أيضا – لعدم القهر و الجبر – أخفى الله نفسه في الإنجيل، و أخفى نفسه في القرآن لأنه لم يرد أن يلجمنا بالتجلي القاطع الفاصل فيقهرنا على الإيمان قهرا. فجعل من التوراة و الإنجيل و القرآن كتبا يمكن أن نؤمن بها و يمكن أن نشك فيها.

و قال عن قرآنه:

((يضل به كثيرا و يهدي به كثيرا..)) (٢٦ – البقرة)

و ضمن آياته البراهين و لكنه لم يجعلها أبدا براهين ملزمة تأخذ بالخناق و تقهر العقل.. و إنما تركك دائما لترجح شيئا على شيء حرصا منه على حريتك.. و لتقول ما تريد دون مؤثرات كابحة.. فتفصح عن دخيلتك و سريرتك و يحق عليك القول.

لقد أرادك أن تكون من أحد الأوجه خليفة صغيرا له على الأرض تحكم و تقضي في شئونك و شئون الآخرين.. ليمتحنك و يختبرك.

و في آية نموذجية يشرح القرآن ما بين القدر الإلهي و الحرية الفردية من تلاق، و يرفع ما بينهما من تناقض.. حينما يروي ما حدث من تكاسل المنافقين عن نصرة الرسول – صلى الله عليه و سلم – و عدم الخروج معه في غزواته:

((و لو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة و لكن كره الله انبعاثهم فثبطهم و قيل اقعدوا مع القاعدين (٤٦) لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا و لأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة و فيكم سماعون لهم و الله عليم بالظالمين (٤٧))) (التوبة)

ها هنا منافقون بالقلب لا يريدون بالنية أن ينصروا نبيهم فيقضي عليهم الله بمثل نيتهم فلا يريد لهم كما لم يريدوا لأنفسهم و يثبطهم و يكره لهم الخروج كما كرهوه لأنفسهم.

و يبدو هذا التماثل بين قدر الله و سريرة الإنسان في آية أخرى أكثر صراحة و التي تخاطب النبي ((يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم..)) (٧٠ – الأنفال)

هنا يبدو الفعل الإلهي (القدر) دائما من جنس النية التي هي عين الاختيار.

و يبدو كيف تماثل أمر الله و اختيار الإنسان و انتفى التناقض.. فلم يكن التناقض إلا في وهمنا نتيجة عدم الفهم.

و أصبح من السهل علينا أن نفهم آيتين متناقضتين في الظاهر مثل:

((فمن شاء فليؤمن و من شاء فليكفر..)) (٢٩ – الكهف)

((و ما تشاءون إلا أن يشاء الله..)) (٣٠ – الإنسان)

ففي الآية الأولى يصف الله إرادة الإنسان الحرة.

و في الآية الثانية يتكلم عن إرادته الإلهية و هي القدر.

و ما بين الإثنين من تناقض هو تناقض في الظاهر فقط.. فقد فهمنا أن الله لا يريد للإنسان إلا ما يريد الإنسان لنفسه:

((و من يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى و يتبع غير سبيل المؤمنين نولّه ما تولى و نصله جهنم و ساءت مصيرا)) (١١٥ – النساء)

من يختار طريق السوء و يرى الله في نيته الإصرار فإنه لا يكرهه على الخير و إنما يختار له ما اختار لنفسه و يمد له في غيه و يمهد له أسباب الشر تمهيدا حتى يخرج ما يكتمه و يتلبس بفعله و يحق عليه العذاب:

((نولّه ما تولى و نصله جهنم و ساءت مصيرا)) (١١٥ – النساء)

هنا الجبر هو عين الاختيار و لا تناقض لأن إرادة الله هي إرادة العبد.

انتفت الثنائية.

((إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم..)) (١١ – الرعد)

الله لا يغير ما يريده بإنسان حتى يغير ذلك الإنسان ما يريده بنفسه.. التطابق هنا واضح.

الإثنان.. الحرية و القدر.. ينفذ القضاء و يتم الفعل بإرادة الله و مشيئته و في الوقت نفسه باختيار الإنسان و حريته بلا تناقض ((قل كلٌ من عند الله)) (٧٨ – النساء)

فأنت تشاء و لكن قدرتك على أن تشاء و تختار هي منحة من الله و مشيئة عليا.. حريتك ذاتها منحة و عطية و مشيئة إلهية.. و من هنا كانت الآية:

((و ما تشاءون إلا أن يشاء الله..)) (٣٠ – الإنسان)

هي تقرير للحقيقة.. و ليست كلاما متناقضا.. فهي تقرر أنك حر و لكن حريتك منحة و عطية و هبة و مشيئة من المعطي.

((و الله مخرج ما كنتم تكتمون)) (٧٢ – البقرة)

الله يخرج ما في النية و يفضح مكتوم السرائر ليسجل على كل واحد نيته كما هي دون جبر أو إكراه.. إنه يفضحها فقط و يخرجها على حالها ليكون كل واحد (طائره في عنقه).

ثم تأتي الآية القرآنية الحاسمة فتختم الموضوع:

((و اعلموا أن الله يحول بين المرء و قلبه و أنه إليه تحشرون)) (٢٤ – الانفال)

و معنى هذا أن الله يدع القلب حرا فتكون لكل إنسان سريرة هو حر فيها. و لكنه يقيم سلطانه بين المرء و قلبه.

فهو يحول بين المرء و قلبه بالتمكين أو الإحباط لطفا منه و رحمة ليقي أحبائه السيئات.. و ليقدم التيسيرات لكلٍّ حسب ضميره و نيته و مبادراته.. إما لليسرى و إما للعسرى.

((إذ يريكهم الله في منامك قليلا و لو أراكهم كثيرا لفشلتم و لتنازعتم في الأمر و لكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور (٤٣) و إذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا و يقللكم في أعينهم ليقضي الله أمرا كان مفعولا و إلى الله ترجع الأمور (٤٤))) (الأنفال)

هنا مثل آخر بليغ للتدخل الإلهي اللطيف الخفي بين المرء و بين قلبه.. فالله يريد أن يحث المسلمين على القتال في بدر و هم قلة (ثلثمائة يواجهون ألفا مدججين بالسلاح و الدروع) يريد أن يدفع المسلمين إلى المعركة دون جبر و دون إكراه حتى يكون الاختيار اختيارهم.. فيسوق إلى الرسول في منامه رؤيا يظهر فيها الأعداء قلة قليلة لا يؤبه لها.. و ساعة المعركة يجعل كثرة المشركين تبدو للمسلمين قلة ليهون من شأنهم.. كما يهون من شأن المسلمين في أعينهم.. و بذلك يستدرج الكل إلى معركة ليقضي أمرا كان في علمه مفعولا.

و هذا هو التيسير الذي يسوق به الأسباب دون أن يخل بناموس الحرية الذي قضى به لكل إنسان في سريرته و هو عن هذه الحرية مسئول.

بهذه الكلمات التي تضيء كالومض الخفي يعطي القرآن المفتاح لأكبر المشكلات استعصاء في الفلسفة.. مشكلة الجبر و الاختيار.

(والمحصول صفر)

لا يوجد وهم يبدو آأنه حقيقة مثل الحب و لا حقيقة نتعامل معها و آأنها الوهم مثل الموت !!فليس هناك أمر مؤكد أكثر من الموت، و مع ذلك لا نفكر أبدا بأننا سنموت، و اذا حدث و فكرنا لا يتجاوز تفكيرنا وهما عابرا عبور النسيم.

و العكس في حالة الحب، فرغم أن الحب دائما أمر يزينه الخيال و يضخمه الوهم و يجسمه التصور و تنفخ فيه الشهوات، و رغم أن الحب يشتعل و ينطفئ و يسخن و يبرد و رغم أن أحواله و تقلباته تشهد بأنه وهم آبير، الا أننا نتعامل معه بالرهبة و التقديس والاحترام و الخضوع ..و نظل على هذا الخلط و الاختلاط حتى نفيق على الصدمة فنصحو و نستعيد رشدنا لأيام أو شهور أو سنوات و لكن لا نلبث أن نستسلم الى اغماء جديد.

و سبب الخلط و الاختلاط هو دائما خطأ في النسبة ..فنحن دائما ننسب الجمال الذي شاهدناه و الحنان الذي تذوقناه الى صاحبته مع أنها ليست صاحبته و لا مالكته ..و لو امتلكت امرأة جمالها لدام لها ..و لكن الجمال لم يدم لأحد، لأنه منحة و اعارة من الله بأجل و ميقات و هو قرض يسترده في حينه ..فصاحبه و مالكه هو الله و ليس أي امرأة.

وكل ما نعشق من حنان و مودة و رأفة و حلم و كرم كلها خلع و منح و أوصاف مستعارة من الودود الرؤوف الحليم الكريم ..و هو مالكها بالأصالة ..و نحن نملكها عنه بالقرض و الاعارة.

و لكن العين التي تعشق الجمال تخطئ نسبته و ملكيته فتظنه لصاحبته فتعشق صاحبته وتعبد صاحبته.

و هي تظل في هذا الوهم حتى تفيق على القبح يطل من تحت المساحيق و القسوة تظهرمن وراء الأهداب فتصحو على الصدمة و تعاني و تتعذب و تندم و تعتبر و تتوب ثم تعود فتنسى و تنزلق إلى وهم جديد..

و تلك هي الغفلة المستمرة التي نعيش فيها جميعا ..نفيق منها لحظات لنعود فنغرق في سباتها من جديد و لا يسلم من هذا البلاء الا نبي معصوم أو ولي عارف يحفظه ربه ويسدل عليه آنفه ..فلا يرى حيثما تولى الا وجه الله.

(فأينما تولوا فثم وجه الله)

فهو الجمال في آل جميل و هو الرأفة و الحنان و الكرم و الحلم و المودة ..فتلك أسماؤه تتجلى في أواني الطين و الخزف الشفافة التي شفها الاحساس حتى أصبحت

مثل الكريستال المضيء تماما آما يرى الفلكي نور القمر فيعرف أنه ليس نوره بل نور الشمس تجلى عن وجهه.

و هكذا لا يرى هذا العارف أينما تولى الا وجه الله ..و هو دائم الهمس الله ..الله .. الله..الله ..الله ..و هو ناظر دائما الى الظاهر و ليس الى المظاهر ..ناظر الى الله الظاهر دائما في آل شيء ..لا يطرف ..متعلق بالمعاني و ليس بالأواني.
و هو لهذا لا ينقسم و لا يتشتت و لا يضيع في التلفت، و انما هو مجذوب الفؤاد الى الله على الدوام.

و لكن أمثال هذا الرجل قليل نادر مثل الألماس و اليورانيوم و أمثاله لا يتجاوزون أفرادا و آحادا بين ألوف الملايين من الحشد المغمى عليه
و هي غفلة عامة غالبة لا ينجي فيها علم و لا ثقافة و لا دآتوراه و لا ماجستير، فتلك أبواب غرور تزيد من الغفلة ..فنرى العالم يضع علمه في خدمة هواه، و عقله في خدمة عاطفته، و مواهبه في خدمة شهواته .فتصبح بلواه مضاعفة و صدمته قاصمة للظهر.

و يمضي العمر في سلسلة من الغفلات و الاغماءات مجموعها في الختام صفر، أو هي في الحقيقة حاصل طرح و ليست حاصل جمع .فمجموعها في النهاية بالسالب و ليس بالموجب فحياة صاحبها الى نقصان يوما بعد يوم و سنة بعد سنة ..يخرج من وهم الى وهم و من خدعة الى خدعة ..حاله مثل حال الشارب من ماء مالح كلما ازداد شربا ازداد عطشا ..لا يحصل على سكينة و لا يبلغ اطمئنانا، و انما هو هابط دوما من قلق الى قلق، و من تمزق الى تمزق، و من تشتت الى تشتت، حتى تنتهي حياته بلا ثمرة، وينتهي تحصيله بلا جدوى.

و تلك هي العقلية الاستمتاعية السائدة اليوم في عالم وثني، أصنامه اللذة و الغلبة و الهوى ..معبود آل واحد نفسه و آتابه رأيه و دستوره مصلحته.

و الحال في الأمم المتخلفة و النامية أسوأ مما هو في الأمم المتقدمة ..و هي أمم مجموعها أحيانا)) حاصل طرح أفرادها ((و ليس حاصل جمعهم، لأنهم منفرطون منقسمون متباعدون آالجزر التائهة في البحر ..يضرب بعضهم بعضا ..و عزمهم مستهلك ..و قوتهم لا شيء..

يتحدثون عن الوحدة.
و لا وحدة الا بالواحد.
هو وحده الواحد لا اله الا هو .الذي يخرج به آل واحد من شتات نفسه و تخرج به الأمم
من تفرقها و يخرج به العالم من انقسامه.

و القضية بالدرجة الأولى قضية ايمان.
هي قضية رؤية..
كيف نرى العالم..؟
و كيف ننظر فيما حولنا..؟
و كيف نحب..؟
هل نستطيع أن نكون ذلك العارف الذي لا يرى في آل شيء الا الواحد ..و لا يبصر الا وجه ربه في آل محبوب.
هل يمكن أن نكون مصداق الآية:
(أينما تولوا فثم وجه الله).
و في هذا الاطار نحب و في هذا الاطار نكره ..فنبذل المروءة و المعروف و المودة للجميع و لا يكون لنا تعلق و لا يكون لنا حب الا الله و بالله و في الله.
ذلك هو الجهاد الصعب.
و لا اختيار..
و لا طريق آخر.
وكل واحد و عزمه.
وكل واحد و همته..
و عبرة كل حياة بختامها ..فلنسارع الى المجاهدة و لنشمر السواعد حتى لا يكون محصول حياتنا صفرا و حتى لا يمضي بنا آل يوم الى نقصان و حتى لا يصبح كل يوم من أيامنا مطروحا من الذي قبله. انما خلق الله الغواية لامتحان القلوب و ليعرف الكبار أنفسهم و ليعرف الصغار أنفسهم من البداية..

(العذاب ليس له طبقة)

الذي يسكن في أعماق الصحراء يشكو مر الشكوى لأنه لا يجد الماء الصالح للشرب.و ساكن الزمالك الذي يجد الماء و النور و السخان و التكييف و التليفون و التليفيزيون لو استمعت إليه لوجدته يشكو مر الشكوى هو الآخر من سوء الهضم و السكر و الضغط.

و المليونير ساكن باريس الذي يجد آل ما يحلم به، يشكو الكآبة و الخوف من الأماآن المغلقة و الوسواس و الأرق و القلق.

و الذي أعطاه الله الصحة و المال و الزوجة الجميلة يشك في زوجته الجميلة و لا يعرف طعم الراحة.و الرجل الناجح المشهور النجم الذي حالفه الحظ في كل شيء و انتصر في كل معركة لم يستطع أن ينتصر على ضعفه و خضوعه للمخدر فأدمن الكوكايين و انتهى إلى الدمار.

و الملك الذي يملك الأقدار و المصائر و الرقاب تراه عبدا لشهوته خادما لأطماعه ذليلا لنزواته.و بطل المصارعة أصابه تضخم في القلب نتيجة تضخم في العضلات.

كلنا نخرج من الدنيا بحظوظ متقاربة برغم ما يبدو في الظاهر من بعد الفوارق. و برغم غنى الأغنياء و فقر الفقراء فمحصولهم النهائي من السعادة و الشقاء الدنيوي متقارب.

فالله يأخذ بقدر ما يعطي و يعوض بقدر ما يحرم و ييسر بقدر ما يعسر ..و لو دخل أحدنا قلب الآخر لأشفق عليه و لرأى عدل الموازين الباطنية برغم اختلال الموازين الظاهرية ..و لما شعر بحسد و لا بحقد و لا بزهو و لا بغرور.

إنما هذه القصور و الجواهر و الحلي و اللآلئ مجرد ديكور خارجي من ورق اللعب ..وفي داخل القلوب التي ترقد فيها تسكن الحسرات و الآهات الملتاعة.
و الحاسدون و الحاقدون و المغترون و الفرحون مخدوعون في الظواهر غافلون عن الحقائق.
و لو أدرك السارق هذا الإدراك لما سرق و لو أدرآه القاتل لما قتل و لو عرفه الكذاب لما كذب.

و لو علمناه حق العلم لطلبنا الدنيا بعزة الأنفس و لسعينا في العيش بالضمير و لتعاشرنا بالفضيلة فلا غالب في الدنيا و لا مغلوب في الحقيقة و الحظوظ كما قلنا متقاربة في باطن الأمر و محصولنا من الشقاء و السعادة متقارب برغم الفوارق الظاهرة بين الطبقات ..فالعذاب ليس له طبقة و إنما هو قاسم مشترك بين الكل .. يتجرع منه كل واحد كأسا وافية ثم في النهاية تتساوى الكؤوس برغم اختلاف المناظر و تباين الدرجات والهيئات.

و ليس اختلاف نفوسنا هو اختلاف سعادة و شقاء و إنما اختلاف مواقف ..فهناك نفس تعلو على شقائها و تتجاوزه و ترى فيه الحكمة و العبرة و تلك نفوس مستنيرة ترى العدل و الجمال في آل شيء و تحب الخالق في آل أفعاله ..و هناك نفوس تمضغ شقاءها و تجتره و تحوله إلى حقد أسود و حسد أكال ..و تلك هي النفوس المظلمة الكافرة بخالقها المتمردة على أفعاله.

و كل نفس تمهد بموقفها لمصيرها النهائي في العالم الآخر ..حيث يكون الشقاء الحقيقي.. أو السعادة الحقيقية ..فأهل الرضا إلى النعيم و أهل الحقد إلى الجحيم.

أما الدنيا فليس فيها نعيم و لا جحيم إلا بحكم الظاهر فقط بينما في الحقيقة تتساوى الكؤوس التي يتجرعها الكل ..و الكل في تعب.
إنما الدنيا امتحان لإبراز المواقف ..فما اختلفت النفوس إلا بمواقفها و ما تفاضلت إلا بمواقفها.
و ليس بالشقاء و النعيم اختلفت و لا بالحظوظ المتفاوتة تفاضلت و لا بما يبدو على الوجوه من ضحك و بكاء تنوعت. فذلك هو المسرح الظاهر الخادع.
و تلك هي لبسة الديكور و الثياب التنكرية التي يرتديها الأبطال حيث يبدو أحدنا ملكا و الآخر صعلوكا و حيث يتفاوت أمامنا المتخم و المحروم.
أما وراء الكواليس.أما على مسرح القلوب.أما في آوامن الأسرار و على مسرح الحق و الحقيقة ..فلا يوجد ظالم و لا مظلوم و لا متخم و لا محروم ..و إنما عدل مطلقو استحقاق نزيه يجري على سنن ثابتة لا تتخلف حيث يمد الله يد السلوى الخفية يحنو بها على المحروم و ينير بها ضمائر العميان و يلاطف أهل المسكنة و يؤنس الأيتام و المتوحدين في الخلوات و يعوض الصابرين حلاوة في قلوبهم ..ثم يميل بيد القبض و الخفض فيطمس على بصائر المترفين و يوهن قلوب المتخمين و يؤرق عيون الظالمين و يرهل أبدان المسرفين ..

و تلك هي الرياح الخفية المنذرة التي تهب من الجحيم و النسمات المبشرة التي تأتي من الجنة ..والمقدمات التي تسبق اليوم الموعود ..يوم تنكشف الأستار و تهتك الحجب و تفترق المصائر إلى شقاء حق و إلى نعيم حق ..يوم لا تنفع معذرة .. و لا تجدي تذكرة.

و أهل الحكمة في راحة لأنهم أدرآوا هذا بعقولهم و أهل الله في راحة لأنهم أسلموا إلى الله في ثقة و قبلوا ما يجريه عليهم و رأوا في أفعاله عدلا مطلقا دون أن يتعبوا عقولهم فأراحو عقولهم أيضا، فجمعوا لأنفسهم بين الراحتين راحة القلب و راحة العقل فأثمرت الراحتان راحة ثالثة هي راحة البدن ..بينما شقى أصحاب العقول بمجادلاتهم.

أما أهل الغفلة و هم الأغلبية الغالبة فمازالوا يقتل بعضهم بعضا من أجل اللقمة و المرأة و الدرهم و فدان الأرض، ثم لا يجمعون شيئا إلا مزيدا من الهموم و أحمالا من الخطايا ظمأً لا يرتوي و جوعا لا يشبع.
فانظر من أي طائفة من هؤلاء أنت ..و اغلق عليك بابك و ابك على خطيئتك.

(عن الانتحار)

من العجيب أن التقدم الذي جاء بمزيد من وسائل الترف و الراحة و بمزيد من التسهيلات للإنسان ..قد قابله الإنسان بمزيد من الرفض و السخط و التبرم، فرأينا إحصائيات الانتحار ترتفع مع مؤشرات التقدم في آل بلد ..آلما ازداد البلدمدنيةً ازداد عدد الذين يطلقون على أنفسهم الرصاص و يلقون بأنفسهم من النوافذ و يبتلعون السم ويشربون ماء النار ..هذا غير الانتحار المستتر بالخمور و المخدرات و التدخين والمنومات و المسكنات و المنبهات ..و في مقدمة هؤلاء المنتحرين طلائع فن و فكروثقافة تعود الناس أن يأخذوا عنهم الحكمة و العلم و التوجيه.
و وصلت الموجة إلى بلادنا فامتلأت أعمدة الصحف بأخبار ابتلاع السم و إطلاق الرصاص و الشنق و الحرق ..و قال المختصون إن نسبة الزيادة الإحصائية تجاوزتالعشرين في المائة ..و هو رقم كبير.

و الازدياد متواصل سنة بعد سنة.
و السؤال ..لماذا ..و ما السر؟
و ما سبب الانتحار؟

و إذا تركنا التفاصيلجانباً و حاولنا تأصيل المشكلة وجدنا جميع أسباب الانتحار تنتهي إلى سبب واحد ..أننا أمام إنسان خابت توقعاته و لم يعد يجد في نفسه العزم أو الهمة أو الاستعداد للمصالحة مع الواقع الجديد أو الصبر على الواقع القديم.
إنها لحظة نفاد طاقة و نفاد صبر و نفاد حيلة و نفاد عزم.

لحظة إلقاء سلاح ..يأس ..ما يلبث أن ينقلب إلى اتهام و إدانة للآخرين و للدنيا ثم عداوة للنفس و للآخرين و للدنيا تظل تتصاعد و تتفاقم حتى تتحول إلى حرب من نوع مختلف يعلنها الواحد على نفسه و يشنها على باطنه، و في لحظة ذروة تلتقط يده السلاح لتقتلع المشكلة من جذورها ..و لتقتلع معها الاحساس المرير و ذلك بطمس العين التي تبصر وقطع اللسان الذي يذوق و تحطيم الدماغ الذي يفكر و تدمير اليد التي تفعل و القدم الذي يمشي.

و هو نوع من الانفراد بالرأي و الانفراد بالحل و مصادرة جميع الآراء الأخرى بل إنكار أحقية آل وجود آخر غير الذات. و لهذا كانت لحظة الانتحار تتضمن بالضرورة الكفر بالله و إنكاره و إنكار فضله و اليأس من رحمته و اتهامه في صنعته و في عدله و رفض أياديه و رفض أحكامه ورفض تدخله.

فهي لحظة كبر و علو و غطرسة و استبداد.
و ليست لحظة ضعف و بؤس و انكسار.
و بدون هذا العلو و الكبر و الغطرسة لا يمكن أن يحدث الانتحار أبدا.

فالإنسان لا ينتحر إلا في لحظة دكتاتورية مطلقة و تعصب أعمى لا يرى فيه إلا نفسه. و الانتحار في صميمه اعتزاز بالنفس و تأله و منازعة الله في ربوبيته.
و المنتحر يختار نفسه و يصادر آل أنواع الوجود الآخر في لحظة غل مطلق ..في لحظة جحيم.. و لهذا يقول الله أن من قتل نفسه يهوي إلى جحيم أبدي، لأنه قد اختار الغل و انتصر للغل و أخذ جانب الغل عند الاختيار النهائي للمصير.

و الانفراد المطلق في الرأي عصبية و غل و نارية إبليسية ..و النفس المتكبرة الأمارة بالسوء هي نار محضة و ظلمة..

وكل منا في داخله عدة احتمالات لنفوس متعددة ..في داخل كل منا نفس أمارة ظلمانية توسوس له بالشر و الشهوات ..و نفس لوامة نورانية تحضه على الخير ثم كل المراتب النفسيةعلواً وسفلاً فوق و تحت هاتين المنزلتين.

و كل نفس في حالة تذبذب مستمر بين هذه المراتب صاعدة هابطة فهيحيناً ترتفع إلى آفاق ملهمة وحيناً تهبط إلى مهاو مظلمة شهوانية.
ثم في النهاية تستقر ..فإذا استقرت على الرفض و الكبر و الغطرسة و الغل ثم اقتلعت أسنانها و لسانها و سمعها و بصرها و قطعت رقبتها في غل نهائي لا مراجعة فيه ..هي قد اختارت الجحيم بالفعل ..بل إنها في ذاتها قبضة نار لا مكان لها إلا في الجحيم.

(ناراً وقودها الناس و الحجارة)

يقول ربنا إن هذه النفوس هي وقود النار و جمراتها و مصدر الطاقة النارية فيها، و معنى هذا أنها أشد نارية من النار.

و المنتحر يتصور أنه سوف يتخلص من نفسه، و لكن لا خلاص و لا مهرب لإنسان من ذاته، فهو لن يخرج بالانتحار إلى راحة، بل هو خارج من النار الصغرى إلى النار الكبرى و من النار الزمنية إلى النار الأبدية.

و لنتجنب هذا المصير فإننا لابد أن نتجنب المشكلةأصلاً .
و المشكلةأصلاً هي التعلق ..و من ليس له تعلق بشيء لا ينتحر لشيء.
و لا يجوز عند المؤمنين تعلق إلا بالله فهو وحده جامع الكمالات، الدائم الباقي

الذي لا يتغير و لا تخيب عنده التوقعات و لا تضيع الآمال.

و الله هو المحبوب وحده على وجه الأصالة و ما نحب في الآخرين إلا تجلياته و أنواره، فجمال الوجوه من نوره و حنان القلوب من حنانه فنحن لا نملك من أنفسنا شيئاً إلا بقدر ما يخلع علينا سيدنا و مولانا من أنواره و أسمائه.

فنحن لا نحب في بعضنا إلا هو.
و هو حاضر لا يغيب و لا يهجر و لا يغدر و لا يغلق بابه في وجه لاجىء و لا يطرد من رحابه ملهوف.فالواقفون عنده مطمئنون راضون ناعمون لا يخطر لهم الانتحار على بال سعداء في جميع الأحوال. إنما ينتحر الذي تعلق بغيره.

الذي تعلق بليلاه و معشوقته و ظن أن جمالها منها فتعلق بها لذاتها تعلق عبادة، و أصبح يتوقع منها ما يتوقع عبد من معبود و ربط نفسه بها رباط مصير .و نسى أنها ناقصة كسائر الخلق و محل للتغير و التبدل تتداول عليها الأحوال و التقلبات فتكره اليوم ما أحبته بالأمس و تزهدغداً فيما عشقته اليوم.

و نسى أن جمالها مستعار من خالقها و أنها إعارة لأجل و حينما ينتهي الأجل ستعود أقبح من القبح. مثل هذا الرجل المحجوب الغافل إذا أفاق على الصحوة المريرة و فاجأه الغدر والتحول، يشعر شعور من فقد آل رصيده و أفلس إفلاس الموت و لم يبق له إلا الانتحار.

و لو أنه رأى جمالها من خالقها لأحب فيها إبداع صنعة الصانع و لكان من أهل التسبيح الذين يقولون عند رؤية آل زهرة ..الله ..فإذا رأوها في آخر النهار ذابلة .. قالواحقاً لا إله إلا الله ..فحبهم لله و في الله و روابطهم روابط مودة و معروف لا مقصد لها و لا غرض و لا توقع ..فالغدر لا يفاجئهم و الهجر لا يصدمهم و شأنهم كما يقول المثل العامي.. اعمل الخير و ارمه البحر ..يبسطون أيديهم بالمعونة دون حساب لأي عائد و دون توقع لثمرة

.هؤلاء هم أهل السلامةدائماً .و هم أهل الطمأنينة و السكينة لا تزلزلهم الزلازل و لا تحركهم النوازل.هم أهل الطمأنينة اليوم.
و هم أهل الطمأنينة يوم الفزع الأآبر ..يوم لا تملك نفس لنفس شيئا، و يوم لا ينفع مال ولا بنون.

و هؤلاء لا يتعلقون إلا بالله.
و لا يؤملون إلا في الله.
و لا يتوقعون إلا من الله.

إن المشكلة هي بالدرجة الأولى مشكلة إيمان ..فكلما وضعت التكنولوجيا في يد الإنسان قوة و ثروة و استغناء ازدادبعداً وغروراً وآبراً وتمرداً، و ازدادتعلقاً و ارتباطاً بالأصنام المادية التي خلقها، و ازدادخضوعاً للملذات التي يسرها لنفسه .. و تصور أن قوته سوف تعصمه و علمه سوف يحميه فأمعن في غروره.

و هل عصم الجبل ابن نوح من الطوفان ؟!
بل كان من المغرقين.

(فلا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم).
ضع يدك في يد الله و لا تبرح و حسبك من علاقتك بالناس أن تبذل لهم مودتك و رحمتك على غير توقع لشيء.

عن الروح و الجسد

سر من أسرار السعادة هو انسجام الظاهر و الباطن في وحدة متناسقة متناغمة. إن غروب الشمس و انسدال العتمة في حنان و النظام المحكم الذي يمسك بالنجوم في أفلاكها و إطلالة القمر من خلف السحاب و انسياب الشراع على النهر و صوت السواقي على البعد و حداء فلاح لبقراته و نسمات الحديقة تلف الشجرات التي فضضها القمر كوشاح من حرير ..إذا اقترنت هذه الصورة الجميلة من النظام و التناسق بنفس تعزف داخلها السكينة و المحبة و النية الخيرة ..فهي السعادة بعينها. أما إذا اقترنت هذه الصورة من الجمال الخارجي بنفس يعتصرها الغل و التوتر و تعشش فيها الكراهية و تنفجر داخلها قنابل الثأر و الحسد و الحقد و نوايا الانتقام .. فنحن أمام خصومة و تمزق و انفصام .نحن أمام هتلر لا حل له إلا أن يخلق حربا خارجية تناسب الحرب الداخلية التي يعيش فيها ..نحن أمام شقاء لن يهدأ إلا بأن يخلق شقاء حوله.

إن السعادة في معناها الوحيد الممكن هي حالة الصلح بين الظاهر و الباطن بين الإنسان و نفسه و الآخرين و بين الإنسان و بين الله .فينسكب آل من ظاهره و باطنه في الآخر أنهما وحدة، و يصبح الفرد منا و كأنه الكل ..و كأنما كل الطيور تغني له و تتكلم لغته.

أما الصورة الدارجة للسعادة التي تتداولها الألسن عن شلة الأنس التي تكرع الخمر في عوامة و حولها باقة من النساء الباهرات العاريات و أجساد تتخاصر و شفاه تتلاثم في شهوة مشتعلة و أفواه تتنفس الحشيش في خدر و تلذذ.

هذه الصورة هي حالة شقاء و ليست حالة سعادة فنحن مع نفوس ترآت قيادها للحيوان الذي يسكنها و آرست حياتها لإرضاء خنزير كل همه أن يأكل و يضاجع. هي حالة عبودية ..حالة غرق للإنسانية في مخاط الحيوانية اللزج.

و مثلها حالة السعداء الآخرين الذين يتسلقون على بعضهم بعضا جريا وراء المناصب والآخرين الذين يكدسون المال و الطين و العقار و يلتمسون السلطة و القوة بكل السبل.

فالسعادة لا يمكن أن تكون في المال أو القوة أو السلطة بل هي في ((ماذا نفعل بالمال والقوة و السلطة)).في النفس التي تستخدم المال و القوة و السلطة.

السعادة ليست في البيت المفروش بالسجاجيد العجمي و الشينوا و الكريستال و لكن في النفس التي تسكنه.
و الخارج لا يستطيع أن يقدم لنا شيئا إذا آنا نحن من الداخل .من نفوسنا..
غير معدين للانتفاع بهذه المنحة الخارجية السخية ..و إذا لم نكن في صلح مع هذا الخارج و في تكييف معه.

و في قصة لتولستوي يقول الإقطاعي للفلاح الطامع في أرضه سوف أعطيك ما تشاء من أرضي .تريد عشرة فدادين ..مائة فدان ..ألفا ..لك أن تنطلق من الآن جريا في دائرة تعود بعدها إلى مكانك قبل أن تغرب الشمس فتكون لك الدائرة التي رسمتها بكل ما اشتملت عليه من أرض ..شريطة أن تعود إلى نقطة البدء قبل غروب الشمس، أما إذا غربت الشمس و لم تعد فقد ضاعت عليك الصفقة ..و يفكر الفلاح الطماع في دائرة كبيرة تشمل آل أرض الإقطاعي ..و هو مطمع يحتاج منه إلى همة و سرعة قصوى في الجري حتى يحيط بها كلها في الساعات القليلة الباقية على الغروب.

و يبدأ في الجري و آلما تقدم الوقت آلما وسع من دائرته اغترارا بقوته و طمعا في المزيد و تكون النتيجة أن تتقطع أنفاسه و يسقط ميتا قبل ثوان من بلوغ هدفه ..ثم لا يحصل من الأرض إلا على متر في متر يدفن فيه ..و هذه هي حاجة الإنسان الحقيقية
من الأرض بضعة أشبار يرقد فيها ..و هو ينسى هذه الحقيقة فيعيش عبدا لأهواء و أطماع و أوهام تضيع عليه حياته.

و قد فطن تولستوي إلى هذه الحقيقة فوزع أرضه على الفلاحين و هرب من بيته الأنيق الدافئ و سكن في آوخ حقير مع الفقراء المعدمين.
و كذلك فعل غاندي الذي عاش على عنزة يحلب لبنها و يغزل صوفها.
و كذلك فعل المسيح الذي عاش بلا بيت و بلا زوجة و بلا ولد ..لا يملك إلا ثوبه.
و هؤلاء هم السعداء العظام الذين جاءوا ليعلموا الناس كيف تكون السعادة.

قال لنا بوذا إن السعادة في قمع الرغبة و ردع النفس و كبح الشهوة بذلك وحده يكون العتق الحقيقي للروح و تحررها من سجن الجسد.

و قال لنا المسيح :((من أهلك نفسه في سبيلي وجدها)).
و قال طالوت لجنوده في القرآن :((إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني و من لم يطعمه فإنه مني)).

و آلها إشارات و رموز إلى الحقيقة.
فنحن لم نوهب الشهوة لنشبعها أآلا و شربا و مضاجعة و تكديسا للمطامع و الثروات..و إنما وهبنا الشهوة لنقمعها و نكبحها و نصعد عليها آما نصعد على درج السلم.

فالجسد هو الضد الذي تؤكد الروح وجودها بقمعه كبحه و ردعه و التسلق عليه.
و بقمع الجسد و ردعه و آبحه تسترد الروح هويتها كأميرة حاآمة و تعبر عن وجودها و تثبت نفسها و تستخلص ذاتها من قبضة الطين و تصبح جديرة بجنتها و ميراثها ..وميراثها السماء كلها، و مقعد الصدق إلى جوار الله ..و هذه هي السعادة الحقة.

أما إذا غلب حكم الطين و انتصرت الجبلة الحيوانية و قرن الإنسان ذاته الشريفة بالمادة الطبيعية فقد هبط بنفسه إلى سجن الضرورات و إلى غلظة الآلية و إلى نار الطبيعة التي تأكل بعضها بعضا و أصبح منها و فيها و لها ..و تلك هاوية التعاسة و التمزق والشتات.

و طريق الإنسان هو هذا الكدح خارجا من قبضة مادته إلى نورانية روحه.
((يا أيها الإنسان إنك آادح إلى ربك آدحا فملاقيه.))

و هو في مكابدة دائمة من لحظة ميلاده يتأرجح بين قطبي جسده و روحه في قلق لا يهدأ و صراع لا يتوقف ..يصعد ثم يسقط ثم يعاود الصعود ثم يعاود السقوط.
و كل منا له معراج إلى الكمال.
كل منا يصعد على قدر عزمه و إيمانه.

و لا صعود دون ربط الأحزمة على البطون و آبح الشهوات.
و الكامل حقا لا يرى في الحرمان حرمانا فموضوعات اللذة المادية لم تعد بذات قيمة في نظره فهو قد وصل بإدراآه العالي إلى تذوق المتع الروحية و اللذات المجردة.. فأصبحت الماديات بعد ذلك شيئا غليظا لا يسيغه ..و هو ارتقاء أذواق و ليس فقط ارتقاء همم و عزائم.

و الصوفية يسمون هذا المعراج النفسي بالخروج ..الخروج من الصفات البشرية إلى الصفات الإلهية.
و الله يطوي الصفات البشرية عن أحبابه كما يطوي لهم الأرض و يجذبهم إليه ..و هي الجذبة الصوفية ..و هي إذا جاءت لصاحبها على غير استعداد جعلت منه مجذوبا خارجا عن صوابه، و هي رتبة دون الكمال ..لأن الكمال هو الصلاح بوعي ..و ليس الصلاح بفقد الوعي.و الأنبياء في هذا الموضوع هم القدوة.
و لم نعرف نبيا واحدا كان مجذوبا أو هائما على وجهه بلا عقل.

و هذه إحدى مزالق الطريق الصوفي ..أن يتعجل السالك الطريق برياضات الخلوة الحادة و مجاهداتها المضنية فيفقد حيوانيته و عقله معا.
و القرآن كان هو المنهج الأمثل لهذه التزآية النفسية فاختار طريق الوسط ..طريق الاعتدال، بين الإفراط و التفريط.

((كلوا و اشربوا و لا تسرفوا)) ..فنصح بضبط النفس على جادة الاعتدال ..لا رهبانية و صيام الدهر ..و لا إطلاق لعنان الشهوات ..و إنما ضبط السلوك على دستور الشريعة و الوصايا ..و هو منهج يؤدي إلى العروج الروحي دون تعسف و دون جذب.

و لا يهتم المسلم السالك بأن تجري على يديه الكرامات و خوارق العادات و إنما هو يقول ..أعظم آرامة هي الاستقامة.و الاستقامة هي سمة الإنسان حقا.
و هي تلك الحالة التي وصفناها في بداية المقال بأنها انسجام الظاهر و الباطن في وحدة_ متناسقة متناغمة ..و أنها حالة الصلح بين الإنسان و نفسه و بينه و بين الناس و بينه وبين الله.

(شق في الحائط)

النملة التي تسكن شق الحائط و تتجول في عالم صغير لا يزيد عن دائرة قطرها نصف متر و تعمل طول الحياة عملا واحدا لا يتغير هو نقل فتافيت الخبز من الأرض إلى بيتها تتصور أن الكون كله هو هذا الشق الصغير و أن الحياة لا غاية لها إلا هذه الفتفوتة من الخبز ثم لا شيء وراء ذلك ..و هي معذورة في هذا التصور فهذا أقصى مدى تذهب إليه حواسها.

أما الإنسان فيعلم أن الشق هو مجرد شرخ في حائط و الحائط لإحدى الغرف و الغرفة في إحدى الشقق و الشقة هي واحدة من عشرات مثلها في عمارة و العمارة واحدة من عمارات في حي و الحي واحد من عدة أحياء بالقاهرة و القاهرة عاصمة جمهورية و هذه بدورها مجرد قطر من عدة أقطار في قارة آبيرة اسمها أفريقيا و مثلها أربع قارات أخرى على آرة سابحة في الفضاء اسمها الكرة الأرضية ..و الكرة الأرضية بدورها واحدة من تسعة آوآب تدور حول الشمس في مجموعة و المجموعة كلها بشمسها تدور هي الأخرى في الفضاء حول مجرة من مائة ألف مليون شمس.

و غيرها مائة ألف مليون مجرة أخرى تسبح بشموسها في فضاء لا أحد يعرف له شكلا..و كل هذا يؤلف ما يعرف بالسماء الأولى أو السماء الدنيا و هي مجرد واحدة من سبع سماوات لم تطلع عليها عين و لم تطأها قدم و من فوقها يستوي الإله الخالق على عرشه يدبر كل هذه الأآوان و يهيمن عليها من أكبر مجرة إلى أصغر ذرة.

كل هذا يعلمه الإنسان على وجه الحقيقة ..و مع ذلك فما أكثر الناس أشباه النمل الذين يعيشون سجناء محصورين كل واحد منغلق داخل شق نفسه يتحرك داخل دائرة محدودة من عدة أمتار و يدور داخل حلقة مفرغة من الهموم الذاتية تبدأ و تنتهي عند الحصول على آسرة خبز و مضاجعة امرأة ثم لا شيء وراء ذلك ..رغم ما وهب الله ذلك الإنسان من علم و خيال و اختراع و أدوات و حيلة و ذآاء و رغم ما كشف له من غوامض ذلك الكون الفسيح المذهل.

أكثر الناس بالرغم من ذلك قواقع و سلاحف و نمل كل واحد يغلق على نفسه قوقعته أودرقته أو يختبئ داخل جحر مظلم ضيق من الأحقاد و الأضغان و الأطماع و المآرب.
نرى الذي يموت من الغيرة و قد نسي أن العالم مليء بالنساء و نسي أن هناك غير

النساء عشرات اللذات و الأهداف الأخرى الجميلة ..و لكنه سجن نفسه بجهله و غبائه داخل امرأة واحدة و داخل جحر نملة واحدة التصق بها كما يلتصق بقطرة عسل لا يعرف لنفسه فكاكا.

و نرى آخر مغلولا داخل رغبة أكالة في الانتقام و الثأر يصحو و ينام و يقوم في قمقم من الكوابيس لا يعرف لنفسه خلاصا و لا يفكر إلا في الكيفية التي ينقض بها على غريمه لينهش لحمه و يشرب دمه.

و نرى آخر قد تكوم تحت الأغطية و غاب في محاولة حيوانية لاستدرار اللذة مثل قرد الجبلاية الذي يمارس العادة السرية أمام أنثاه.
و نرى آخر قد غرق في دوامة من الأفكار السوداوية و أغلق على نفسه زنزانة من الكآبة و اليأس و الخمول. و نرى آخر قد أسر نفسه داخل موقف الرفض و السخط و التبرم و الضيق بكل شيء.و لكن العالم واسع فسيح. و إمكانيات العمل و السعادة لا حد لها و فرص الاآتشاف لكل ما هو جديد و مذهل ومدهش تتجدد آل لحظة بلا نهاية.

و قد مشى الإنسان على تراب القمر.
و نزلت السفن على آوآب الزهرة.
و ارتحلت الكاميرات التليفزيونية إلى المريخ.
فلماذا يسجن الإنسان نفسه داخل شق في الحائط مثل النملة و يعض على أسنانه من الغيظ أو يحك جلده بحثا عن لذة أو يطوي ضلوعه على ثأر.

و لماذا يسرق الناس بعضهم بعضا و لماذا تغتصب الأمم بعضها بعضا و الخيرات حولها بلا حدود و الأرزاق مطمورة في الأرض تحت أقدام من يبحث عنها.
و لماذا اليأس و صورة الكون البديع بما فيها من جمال و نظام و حكمة و تخطيط موزون توحي بإله عادل لا يخطئ ميزانه ..كريم لا يكف عن العطاء.
لماذا لا نخرج من جحورنا ..و نكسر قوقعاتنا و نطل برؤوسنا لنتفرج على الدنيا و نتأمل.

لماذا لا نخرج من همومنا الذاتية لنحمل هموم الوطن الأكبر ثم نتخطى الوطن إلى الإنسانية الكبرى ..ثم نتخطى الإنسانية إلى الطبيعة و ما وراءها ثم إلى الله الذي جئنا من غيبه المغيب و مصيرنا إلى غيبه المغيب.

لماذا ننسى أن لنا أجنحة فنجرب أن نطير و نكتفي بأن نلتصق بالجحور في جبن و نغوص في الوحل و نغرق في الطين و نسلم قيادتنا للخنزير في داخلنا.
لماذا نسلم أنفسنا للعادة و الآلية و الروتين المكرر و ننسى أننا أحرار فعلا.
لماذا أكثرنا نمل و صراصير_ ..

(الحب القديم)

الناس يفهمون الدين على أنه مجموعة الأوامر و النواهي و لوائح العقاب و حدود الحرام و الحلال ..و كلها من شئون الدنيا ..أما الدين فشيء آخر أعمق و أشمل و أبعد.

الدين في حقيقته هو الحب القديم الذي جئنا به إلى الدنيا و الحنين الدائم الذي يملأ شغاف قلوبنا إلى الوطن الأصل الذي جئنا منه، و العطش الروحي إلى النبع الذي صدرنا عنه و الذي يملأ آل جارحة من جوارحنا شوقا و حنينا ..و هو حنين تطمسه غواشي الدنيا و شواغلها و شهواتها.

و لا نفيق على هذا الحنين إلا لحظة يحيطنا القبح و الظلم و العبث و الفوضى و الاضطراب في هذا العالم فنشعر أننا غرباء عنه و أننا لسنا منه و إنما مجرد زوار و عابري طريق و لحظتها نهفو إلى ذلك الوطن الأصل الذي جئنا منه و نرفع رؤوسنا في شوق و تلقائية إلى السماء و تهمس آل جارحة فينا ..يا الله ..أين أنت.

و لحظة نخطئ و نتورط في الظلم و ننحدر إلى درآات الخسران فننكس الرؤوس في ندم و ندرك أننا مدانون مسئولون ..فذلك هو الدين ..ذلك الرباط الخفي من الحنين لماض مجهول ..و ذلك الإحساس بالمسئولية و بأننا مدينون أمام ذات عليا .. و ذلك الإحساس العميق في لحظات الوحدة و الهجر ..بأننا لسنا وحدنا و إنما في معية غيبية و في أنس خفي و أن هناك يدا خفية سوف تنتشلنا، و ذاتا عليا سوف تلهمنا و رآنا شديدا سوف يحمينا، و عظيما سوف يتدارآنا ..فذلك هو الدين في أصله و حقيقته.

و ما تبقى بعد ذلك من أوامر و نواه و حرام و حلال و أحكام و عبادات هي تفاصيل ونتائج و موجبات لهذا الحب القديم.

و لكن الحب هو رأس القضية ..و إذا غاب ذلك الحب فإن آل العبادات و الطاعات لن تصنع دينا و لن تصنع متدينا مسلما آان أو مسيحيا أو يهوديا.

و ما كان الصليبيون الذين جاءونا غزاة طامعين ..على دين أي دين ..و لا كان سفاحو الصرب الذين يقتلون الأبرياء على أي ملة من ملل النصارى و لا كان إرهابيو اليوم الذين يفجرون القنابل مسلمين ..و لو صلوا جميعا و لو صاموا الدهر و لو أطالوا اللحى و قصروا الجلابيب و حملوا المصاحف و رتلوا الآيات ..ما بلغوا من الدين شيئا.

و هل بلغ النبي يحيا (يوحنا المعمدان) عليه الصلاة و السلام ما بلغه من نبوة إلا بذلك الحنان الذي آان يفيض منه و الذي قال فيه ربه)) :و حنانا من لدنا و زكاة و كان تقيا. ((مريم 13)) .

فتلك كانت أركان نبوته ..الحنان و الزكاة و التقوى.
و نبينا عليه الصلاة و السلام الذي آان يحتضن جبل أحد و يقول:
هذا جبل يحبنا و نحبه..
حتى الجماد كان موضع حب النبي و توقيره.

و هذا ابن عربي يقول:
لن تبلغ من الدين شيئا حتى توقر جميع الخلائق و لا تحتقر مخلوقا ما دام الله قد صنعه.
و هذا ربنا يقول عن المؤمنين:
((أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى)) الحجرات 3.

فالقلوب هي دائما موضوع الامتحان.
و حب الله و حب ما خلق و ما صنع من أرضين و سماوات و نبات و حيوان و بشر هو جوهر كل الديانات الحقة ..و هو المقياس الذي نفرق به بين أهل الدين ..و الأدعياء المشعوذين و الكذبة.

و كل الدعاة الذين يغرقون أتباعهم في التفاصيل و القشور و المظاهر و يبتعدون بهم عن روح الدين ..عن الحب و الرحمة و التقوى و مكارم الأخلاق ..هم من الكذبة بقدر بعدهم عنها.

و ما كان اعتراض المسيح على الفريسيين إلا لإغراقهم في الجدل و في حرفية النصوص و في ظاهر الكلمات دون الالتفات إلى روحها.

و ما كانت نقمة موسى على اليهود حينما أمرهم بأن يذبحوا بقرة ..إلا لإغراقهم في الجدل و التنطع و السؤال ..أي بقرة تكون و ما لونها ..بنية هي أم مرقشة أم صفراء..
عجوز أم بكر ..ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ..أو لعلك تهزأ بنا.
هذا الجدل و الغرق في التفاصيل و التحجر على الحروف و الكلمات أخرجهم من الدين في نظر موسى و استحقوا عليه التقريع و اللوم.

و للأسف الشديد التدين اليوم خرج من روح التدين بسبب انحراف الدعوة و انحراف أكثر الدعاة و إغراقهم في القشور و التفاصيل و الخلافيات و الأمور

الثانوية مما ألقى بأكثر المسلمين إلى الاختلاف و الجدل و التعصب، و مما أوجد هذا التدين السطحي المتهوس الأبله.

و أرى أننا مطالبون اليوم أكثر من أي يوم مضى بالعودة إلى روح الإسلام و إلى نبعه الشامل ..إلى فضائل الحب و الرحمة و المودة و التقوى و سعة الصدر مع الخصوم و تدبر معاني النصوص و عدم الوقوف عند حروفها و قراءة القرآن بالقلب و ليس بالأحداق.

و الإسلام ليس ألغازا و ليس لوغاريتمات و لا يحتاج منا إلى كل تلك الفتاوى.
و النبي عليه الصلاة و السلام أجاب من سأله عن الإسلام فقال في كلمات قليلة بليغة:

قل لا إله إلا الله ثم استقم.

هكذا ببساطة ..كل المطلوب هو التوحيد و الاستقامة على مكارم الأخلاق.
إنها الفطرة و البداهة التي نولد بها لا أكثر ..أن تحب أخاك كما تحب نفسك.
إسأل نفسك ..هل تنام كل يوم على مودة و حب و رغبة في الخير و نية في عمل صالح ؟ أم على غل و كراهية و حسد و تربص ؟ ..و ستعلم إلى أي مدى أنت على دين الإسلام.

ماذا تخفي في طيات ثيابك ؟ هل تخفي خنجرا أم مسدسا ؟ أم تخفي هدية حب و رسالة خير لإخوانك ؟ هل تخطط لتبني أم لتهدم ؟ هل تنطق بالطيب من القول و بالنافع من الكلام ؟ أم تدعو إلى الخراب و الدمار و الفتن؟

إن الدين لا يحمل سيفا إلا للدفاع عن مظلوم و لا يعرف العنف إلا إصلاحا.
بهذه المقاييس تعرف نفسك و تعرف الخانة التي يقف فيها ذلك الداعية الذي يدعوك إلى الإسلام ..و تعلم أين يقف ..مع الدين أم مع الإجرام.

إن الفطرة و البداهة دليلك ..و لست في حاجة إلى فقه أو فلسفة أو فتوى.
قلبك يفتيك. إنه الحب ..قلب القضية و روحها ..و الجوهر الصافي لجميع الأديان و كل الرسالات.

أما الشرائع و الأوامر و النواهي فهي لتنظيم شئون الدنيا لا غير ..و هي تابعة للإطار العام ..إشاعة السلام و العدل و الحب بين الناس ..و سوف يتوقف عملها في الآخرة..حينما لا يعود لأحد حكم أو سلطان.
((لمن الملك اليوم ..لله الواحد القهار.))

انتهت وظيفة آل الشرائع و آل الأوامر ..لأن الأمر الآن أصبح أمر ملك الملوك مباشرة، و التصريف تصريفه، و العدل عدله، و البطش بطشه ..و لم يعد لأحد الحرية في أن يطغى أو يظلم.

و مجال الشرائع إذن محدود بوظائفها و زمانها.
و آما قال الفقيه الإسلامي العظيم ..العز بن عبد السلام.
في زمان شيوع البلوى إذا أصبح تطبيق الشريعة مؤديا إلى ازدياد المنكر فإنه يحسن بالمسلم عدم تطبيقها (شهود الزور على أبواب المحاكم و يمكنك أن تستأجر أي واحد لتقطع به يد خصمك).

و من هنا أفتى العز بن عبد السلام بعدم تطبيق حد الخمر على عسكر التتار لأن سكرهم و غيبوبتهم سوف تكف شرهم عن الناس و في ذلك فائدة و خير ..بينما إفاقتهم سوف تؤدي بهم إلى معاودة الأذى و الضرر و في ذلك مزيد من المنكر.
لقد فهم ذلك الفقيه العظيم أن حكمة الشرائع هي إقامة المصالح في الدنيا و أنها مرتبطة بالمنافع و ليس لها حكم مطلق و أن مجالها محدود بوظائفها و زمانها.
و بهذا المعنى نفسه لم يطبق النبي عليه الصلاة و السلام حد القطع على السارق في سنوات الحربكما لم يطبقه عمر بن الخطاب في عام المجاعة.

و نفس هذا الكلام يقال للغوغائيين من الدعاة و السطحيين الذين يطالبون بقطع الأيدي و الرجم و الجلد كعلاج للفساد الموجود ..و هم لا يعلمون أن الفقه الإسلامي نفسه لا يوافقهم على هذا الفهم السطحي و الغوغائي ..فالعصر باعترافهم عصر شيوع الفساد و شيوع البوى، و بالتالي يستوجب فقها آخر ملائما للظرف القائم .. لأن تطبيق الحدود العادية سوف يزيد المنكر نكرا ..فالوزير و الكبير الذي يسرق مئات الملايين عن طريق العمولات لن تطبق عليه شروط القطع الفقهية التقليدية و سوف يعفى من القطع بينما النشال الذي يسرق خمسة جنيهات سوف تقطع يده و في ذلك ظلم فاحش و تشجيع للكل بأن يسرقوا و ينهبوا بالطرق الملتوية من عمولات و رشوة و اختلاس و تزييف و خلافه ..و في ذلك حض على عموم المنكر.

و على باب أي محكمة يمكنك أن تشتري أربعة شهود زور لتقطع يد من تريد و ترجم من تشاء. ثم من يقطع يد من في عالم كله من اللصوص و المرتشين..؟!
و نفس الشيء يقال في معاقبة الزاني بالرجم في الوقت الذي تحض فيه الإذاعات و البث التليفزيوني الخارجي الهابط من الجو عبر الأقمار الصناعية على الفحش العلني و تدفع بالشباب دفعا إلى الفسق ..فالشباب مجني عليه و ليس جانيا و إطلاق الحدود في مثل هذه الحال من شيوع البلوى ظلم ..فضلا عن استحالة استيفاء الشروط الفقهية للرجم و هي.. أربعة شهود يحلفون أنهم شهدوا عملية الإدخال .. فالعقوبة هنا غير واردة ..و هؤلاء الدعاة الغوغائيون يقولون إفكا من القول و زورا و يباشرون فهما متحجرا ضيق الأفق لا يقول به أي فقيه مسلم مستنير.

و ينسى هؤلاء عقلانية الإسلام و مرونته و تقديره للظروف.
و يأخذون من القرآن آية واحدة مقطوعة من سياقها و يغفلون روح القرآن في مجموع آياته و نصوصه و هو آتاب أوله رحمة و آخره رحمة.
ألم يقل الإنجيل في صريح آياته:
إن أعثرتك يدك فاقطعها و إن أعثرتك عينك فاقلعها.
و هو أمر بقطع اليد التي تسرق و فقء العين التي تزني ..و مع ذلك لم يقل أحد من فقهاء المسيحية بهذا ..و إنما وضعوا الآية داخل مجموع آيات الإنجيل و سوره و قالوا بالروح العامة التي تشيع في كتابهم ..و هي روح المحبة و الرحمة و العفو و المغفرة ..و اكتفوا بالعقوبات التعزيرية مثل السجن و التأديب و الغرامة.

بهذا المفهوم من الحب و الرحمة يكون النظر إلى الشرائع في إطار زمانها و مكانها و ظروفها و في إطار الرحمة التي أوجبها الله ..فهو سبحانه خلق لنا الشرائع لإسعادنا في الدنيا و ليس لتعذيبنا و خلق لنا العقل لنتدبركلماته و لم يضع داخل رؤوسنا حجارة و لاجعلنا آلات تنفذ في آلية بلا تدبر و بلا تفكير ..و أراد بروح النصوص أن تكون هي الحاكمة على حروفها ..و بدأ باسمه الرحمن الرحيم كل شيء. و إسلامنا أوله رحمة و آخره حمد و أوسطه محبة.

و الحب هو روح الوجود و هو سر ديمومته ..و هو النفحة الربانية التي بدونها تنهد أرآان الشرائع جميعها و تزول النعمة و ينعدم المعنى.
و بدون الحب في قلبك لا يعود لوجودك معنى و لا لفضائلك معنى و لا لدينك أي معنى مهما أطلت اللحى و بسملت و حوقلت و صمت و حججت و اعتمرت.

و غني عن البيان أن المقصود بالحب هنا ..هو حب الحق و حب الخير و حب العدل و حب الجمال و حب المثل العليا و هي جميعها أسماء الله الحسنى و مسمياته ..فهو سبحانه وحده الذي له المثل الأعلى في السماوات و الأرض ..و هو الحق و هو العدل الحكم و هو بديع السماوات و الأرض ..و آل جمال في الكون يرتد إلى جماله و كل كمال في الخلق يرتد إلى كماله.

و هذا هو الحب القديم الذيفُطرنا عليه منذ أن خاطبنا ربنا قبل أن نولد و قبل أن نجيء إلى الدنيا هاتفا بنا:

ألست بربكم.
فقلنا جميعا و نحن ننظر بتعلق و حب إلى وجهه الكريم:
بلى شهدنا.
و هذا الحب هو حقيقة آل الأديان و روح آل العقائد و أساس آل الملل ..و بدونه لا معنى لدين و لا معنى لدينونة.

و هذا الشوق النبيل هو الطاقة الدافعة وراء كل فن عظيم و كل إبداع رفيع و كل فكر ملهم وكل استشهاد و كل فداء وكل بطولة.
و هذه النورانية فينا هي التي اقتضت سجود الملائكة و تسخير الكون لنا ..و هي التي جعلت حياتنا رغم مشقاتها و عذابها جديرة بأن نحياها.

فماذا نحن فاعلون ؟
أما زلنا نختلف سنة و شيعة و شوافع و أحنافا و زيودا ..و على ماذا ؟

على ماء الوضوء يصل إلى الكوع أو يشمله ..و على الأيدي ترسل على الجانبين أثناء الصلاة أو تضم على الصدر ..و على نقاب أم حجاب ..و لحية أم جلباب ..و أذان واحد لإقامة الصلاة أم أذانين ..و نجهر بالصلاة متى و نخافت بها متى ..و ننتظر الإمام الغائب أم لا ننتظر ..و نولي الفقيه أم السياسي ..و نضع أموالنا في البنك أو عند الريان.

يا سادة ..فيم تختلفون ..ألا ترون الأيدي التي تريد أن تلقي بكم في جب و تهيل عليكم
التراب ؟ ..ألا تسمعون كلام الله يدوي في آذانكم.

((إن هذه أمتكم أمة واحدة و أنا ربكم فاعبدون)) الأنبياء92 :
ألا تسمعون وعيده و تهديده و هو يقول:
((و إن تتولوا يستبدل قوما غيرآم ثم لا يكونوا أمثالكم)) محمد38 :

و إنه ليوشك أن يفعل إذا استمر خلافنا.
و فيم الخلاف و قد آذن الموت باقتراب و أطبق علينا التآمر من كل جانب.
وكيف يختلف أهل توحيد و أهل فطرة ..دينهم أبسط و أوضح من نور النهار ..
أوجزه نبيهم في كلمات:

قل لا إله إلا الله ثم استقم.

لم يذكر عمامة و لا جلبابا و لا لحية و لا نقابا ..و إنما فقط الاستقامة على مكارم الأخلاق و على توحيد الله ..و آل ما عدا ذلك فضول ..

و هل البنوك حرام أم حلال ؟ وهل التصوير حرام أم حلال ؟ و هل الموسيقى حرام أم حلال..؟و هل الغناء حرام أم حلال..؟لم يدخل بنا في هذه التفاصيل و المتاهات.

و قد غنت البنات و الأولاد للنبي عليه الصلاة و السلام عند قدومه المدينة و أنشدته الخنساء الشعر فاستزادها ..و لو كانت هناك كاميرات على زمان النبي لوجدنا له و

لصحابته الكرام مئات الصور.و هناك الجديد و الرفيع من الفنون الذي تنشرح له الصدور و هناك الوضيع و الهابط الذي تعافه الأذواق و ترفضه النفوس قبل الشرائع.

و تستجد في كل زمان أحوال و ظروف.
و تطرأ ملابسات و متغيرات.
ثم لا تختلف الأذواق على قبح القبيح و على حسن الحسن.
و لا يحتاج أهل الفطر السليمة إلى فتاوى و إنما قلب المؤمن دليله.

إنما هي تجارة جديدة يمشي بها تجار السوء في الناس فيشككون في كل شيء و يبثون الوسواس و ينشرون الخلافات و يشيعون المخاوف و يبذرون الأحقاد و يجعلون من كل طائفة عدوة للأخرى و يجعلون من كل إنسان خصيما لأخيه.

و هي تجارة تروج مع التخلف و تزدهر في الأزمنة الرديئة.
و نحن بلا شك في أردأ الأزمان.

و إذ يوشك الظلام أن يشتد و يملأ تجار السوء الأرصفة ببضاعتهم الفاسدة و يتنادى أبالسة الشقاق ليشتتوا الناس شراذم و جذاذات ..بينما تزحف علينا العداوات من كل جانب و نحن في غفلة ..لا أملك إلا أن أصيح بالكل ..أن انتبهوا ..و استقيموا يرحمكم الله ..و سدوا الفرج ..و ضموا الصفوف ..فليس أولى بالوحدة منا نحن عباد الواحد..

فليس عندنا آثرة من الآلهة نختلف عليها و إنما هو إله واحد و نبينا واحد و قبلتنا واحدة و صلاتنا واحدة ..و لا خلاف بين سنة و شيعة فكلنا بحب أهل البيت مشغوفون وبسيرتهم مغرمون و سيدنا علي هو سيد شباب أهل الجنة و هو في أعيننا سنة و شيعة..

و الطقوسية ليست بضاعتنا ..و إسلامنا ليس ضد النصارى بل هو معهم ما تعاونوا و ما تحابوا ..و الذين قتلوا مسلمي البوسنة ليسوا بنصارى بل هم وحوش لا ملة لهم و لا دين ..و لو آانوا نصارى لمنعهم إنجيلهم الذي يقول أحبوا أعداءكم ..و أتباع عيسى بحق و أتباع محمد بحق هم على طريق واحد و هو طريق موسى و طريق جميع الأنبياء فكلمة الله لجميع أنبيائه واحدة و لكن صهاينة اليهود خانوا توراتهم و اتبعوا أهواءهم و اتخذوا من التلمود و البروتوآولات دستورهم ..و صليبية اليوم ليس صليبية نصرانية بل صليبية صهيونية يهودية.

و أقول لكم ..اتفقوا و تناصحوا و تحابوا و تآخوا و تماسكوا صفا واحدا.

و إذا كان ربنا يقول إنه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ..فإن ما بأنفسنا الذي يريد ربنا أن نغيره هو هذه الأنانية و العصبية و الطائفية و عبادة الرأي و عبادة النفس و عبادة الهوى و حب الدنيا و الانغلاق على شخصانية ضيقة غبية عمياء لا ترى إلا لشبر واحد أمامها.

لم يطلب منا ربنا حيازة تكنولوجيا الذرة و الإلكترونيات و الليزر لينصرنا ..و إنما طلب هذا الطلب الواحد البسيط ..أن نغيرما بأنفسنا ..و قد أرانا بأعيننا آيف انتهت روسيا دون حرب و كيف ركعت على أقدامها دون أن تطلق عليها رصاصة ..و كيف انهزمت من الداخل ..من داخل نفوسها فانهارت و على ظهرها من القنابل الهيدروجينية ما يكفي لتفجير الكرة الأرضية عدة مرات ..فكذلك تكون نهاية الأمم العملاقة حينما تطغى.

و أتوجه بهذا النداء إلى 47 دولة إسلامية فيها أآثر من نصف آنوز الكرة الأرضية وأغلبها يتسول طعامه و يقترض مصروف يومه ..و أقول لهم ..منظركم عجيب و أنتم طاالإبل الشاردة لا تجتمع على كلمة ..ألا تسمعوا حادي الصلاة و هو ينادي عليكم:

استقيموا يرحمكم الله ..و سدوا الفرج ..و ضموا الصفوف.
إنما يريدها سنة حياة لا تعليمات لمدى خمس دقائق.
فصلاة المسلم هي مؤشر لحياته و لا صلاة لكم و أنتم ممسكون بعضكم بخناق بعض.

فاجتمعوا و تحابوا و اتحدوا فقد تداعت عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها وأنتم كثير و لكن كغثاء السيل الذي انفرط و تفرق بددا.
فهلا اجتمعتم ..قبل أن__فهلا اجتمعتم ..قبل أن يأتي عليكم الطوفان ؟
أليس فيكم رجل رشيد ؟

عجبت لكم ..أراكم في الصلاة تتوجهون بالملايين إلى آعبة واحدة في مكة ..فإذا انقضت الصلاة انفرط الجميع و تفرقت بكم الطرق ..فمنكم من آعبته واشنطن ..و منكم من كعبته باريس ..و منكم من كعبته جنيف ..و منكم من كعبته إسرائيل ..و منكم من كعبته صندوق النقد الدولي ..و منكم من كعبته السي آي ايه ..و منكم من كعبته نفسه.

فأي نجاح تنتظرون و آل منكم حرب على الآخر ؟

هل أرسلتم النظر لأبعد من أقدامكم فالموت على الباب و الله من ورائكم محيط و ما تبقى من عمركم لحظة ..ثم لا يعود يغني مال و لا بنون و لا جاه و لا ملايين الدولارات في بنوك نيويورك و لوكسمبورج و لندن.

لقد قررت إسرائيل يا سادة أن تقيم دولتها الكبرى على أكتافكم ..على أكتاف عداواتكم وتفرقكم.و قررت أن يكون ذلك في السنوات القليلة القادمة.

(أنـا و نفسي و الشيطان)

قالت لي نفسي:
نارك و جنتك بين جنبيك ..نارك و جنتك فيما تختار و ما تعجل إليه من أقوال و أفعال وما تبادر إليه من أقوال و أفعال و ما تبادر إليه من عمل و ما تمتد إليه يدك من حلال وحرام..

يدك هي التي تحفر بها قبرك و تصنع بها مصيرك و لسانك هو الذي يهوي بك إلى الهاوية أو يصعد بك إلى أعلى عليين ..أنت ما تقول و أنت ما تفعل..
انظر ماذا تفعل تعلم مسكنك و تشهد قيامتك قبل قيامتك و تعلم ساعتك قبل ساعتك.
قال لي شيطاني مستنكرا:

و أين أنت الآن من قيامتك و أين أنت من ساعتك ..هذا الوسواس الشؤم الذي تصحو وتبيت فيه ..انظر حولك يا فتى ..أنت مازلت في الدنيا ..اقطف زهرتها و انعم بلذاتها وأمامك فرص التوبة ممتدة بطول عمرك ..و أنت ما عشت فأنت في رعاية التواب الغفارقابل التوب و غافر الذنب ..لا تعقد أمورك و اضحك للأيام تضحك لك..
قلت و أنا أتحسب كل كلمة..
تضحك لي أو تضحك علي يا لعين ..و من أدراني أن ما أقول الآن هو آخر أقوالي و ماأفعل الآن هو ختام أفعالي و أني ميت اليوم و من مات فقد قامت قيامته و بدأت ساعته.
قال شيطاني ..أعوذ بالله من غضب الله..
ما هذا الكابوس الذي تعيش فيه، حياة كالموت و موت كالحياة، لم يبق إلا أن تصنع لنفسك تابوتا و تنسج لك كفنا تتمدد فيه ..أين أنت من هذا اليوم يا رجل.
قلت:
و من يدريني أن بعد اليوم بعد.

قال شيطاني.
هل أقمت من نفسك قابضا للأرواح و فالقا للإصباح أم أنك المتنبي الذي لا تخيب له نبوءة ..الزم غرزك يا رجل ما أنت إلا عبد من عباد الله ..عش يومك كأنك تعيش أبدا..
قلت:
ما قالوها هكذا يا لئيم ..بل قالوا ..اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا و اعمل لآخرتك كأنك تموت غدا ..أرأيت كيف تقلب كل الحقائق..

قال شيطاني:
إنما أردت لك الحياة و أردت أنت لنفسك الموت ..و مرادي كان دائما مصلحتك.
قلت:
بل موت النفوس كان مرادك و هلاكها في الجحيم كان شغلك الشاغل و همك المقيم ياسمسار الجحيم.

هل آنت أكلم أحدا ؟؟ ..أم كان يكلمني أحد.
هل كان حوارا بحق ..أم كان خيالا ..أتخيله.

إن حديث النفس حقيقة لا شك فيها ..و هو نوع من الإعجاز الرباني ..فهو حديث داخلي لا يسمعه غيرك و لا يطلع عليه سواك ..و لا يستطيع أي جهاز إلكتروني بشري أن يسجله عليك ..و النفس فيه طرف ..و الطرف الآخر يمكن أن يكون النفس ذاتها ..ويمكن أن يكون الشيطان ..و إبراهيم الكليم أبو الأنبياء آلمه ربه ..و هكذا ترتفع المكالمة لكل نفس على حسب قدرها و مستواها.

يقول ربنا مكلما موسى في سورة الأعراف آية 144
((قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ)) .

و حينما تكون وساوس النفس من المستوى الشيطاني ..يمكن أن يكون الشيطان طرفا في الحديث ..و حينما ترتفع النفس إلى المستوى الملائكي ..يمكن أن يكون القرين المتحدث ملائكيا ..و كلما ارتفع مستوى الحديث ارتفع مستوى المتحادثين.
و للغيب علومه آما أن للفيزياء علومها و للذرة علومها و للنفس علومها.
و الشيطان حقيقة و ليس شخصية روائية خيالية من بنات خيال المؤلفين.

و في آخر الزمان حينما تقوم القيامة سوف يعترف الشيطان بما فعل بضحاياه أمام الملأ و أمام الحشر المجتمع من كل الخلائق.

((وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)) إبراهيم22 .

و هكذا ينزل ستار الختام على الدراما الكبرى للوجود التي استغرقت أجيالا و قرونا من آدم أول الخلق إلى الخاتم محمد بن عبد الله آخر الرسل عليه الصلاة و السلام .. في كلمات هائلة تتصدع لها القلوب و مشهد جامع يشيب له الولدان.

و سوف نرى الشيطان ساعتها و هو يتكلم في قلب الجحيم و سوف نسمع آخر كلماته.
((إن الظالمين لهم عذاب أليم)).
إن الشيطان حقيقة و ليس أسطورة.
و النار حق.و العذاب حق.

إنها ليست أوبرا يا سادة ..يصفق بعدها الحضور و تنزل الستار ..آما يتصور الأوروبيون المتحضرون عشاق الفن.
و الأمر ليسكما تصوره الرئيس ميتران في الحديث التليفزيوني الذي أجاب فيه على المذيع الذي سأله ..ماذا تقول لله حينما تراه يا سيادة الرئيس ..فأجاب ميتران:
سوف أقول له. Sorry ..

هكذا قال الرئيس ميتران في بساطة فرنسية.
و لا أظن أن الرئيس ميتران سوف يرى الله ..و لا أظنه سوف يقوى على مكالمته.
و لا أظنه سوف يجتمع له رشد أمام ذلك المشهد الرهيب أو يبقى فيه لب لينطق.

و كان آخر ما شهدت من الرئيس ميتران مشهدا لا أنساه أيام حرب الإبادة التي أعلنها الصرب على مسلمي البوسنة.
رأيته و قد جاء مسرعا من فرنسا ليرى بعينيه مصارع المسلمين في الأرض الأوروبية ..و وقف يتلفت حوله في ثقة و اعتداد.
أخيرا جاء يوم الطرد النهائي للمسلمين من الأرض الأوروبية.
هكذا نطقت عيناه ..و إن لم تنطق شفتاه.

و قلت له في نفسي ساعتها.
بل لم تنته القصة بعد يا سيادة الرئيس.
و قد انتهت حياة ميتران و مات بالسرطان.
و لم تنته القصة بل تعددت فصولا ..فشاهدنا لها فصلا ثانيا في حرب آوسوفا ثم فصلا ثالثا في حرب الشيشان تخوضها روسيا بتمويل أمريكي و مساندة إسرائيلية و سكوت أوروبي.

و الحرب معلنة على المسلمين في كل مكان هذه الأيام.
و للشيطان أعوان من شياطين الإنس بلا عدد.
و لله شهداء يختارهم كل يوم ليزين صدورهم بأوسمة البطولة.
و الحرب مستمرة ..و سوف تتعدد فصولا إلى آخر الزمان ..حينما تنزل ستار الختام ..وتعلن الحقائق في مشهد جامع هو يوم القيامة.

و أعترف بأني شديد الفضول لرؤية السيد ميتران ساعتها ..شديد الفضول لما سيقول..هل سيقول لرب العالمين . ..Sorry.. كما زعم في حديثه الكوميدي في التليفزيون ليرحمنا الله جميعا..

فهذا مشهد يشق على الجبابرة..
فما بال الضعفاء أمثالنا.
و ما زلت أعجب كيف قالها ..بهذه البساطة الفرنسية.
إنه قطعا لم يتصور أنه يتحدث عن واقع سيقع ..و لم يخطر بباله أبدا أنه سوف يحدث كما تروي الكتب الدينية.
و الأوروبي العادي يفتح فمه في دهشة إذا قلت له إنه سوف يقوم من الموت ليقف بين يدي الله ..رب العالمين..
و لو أنه أيقن بذلك و آمن به ..لما كان هناك استعمار ..و لما كانت هناك تلك المجازر البشعة و الإبادة المنظمة التي زاولها الرجل الأبيض في حروبه مع السود في أفريقيا وآسيا ..و مع المسلمين في كل مكان..

و إنما الظلم كان يملأ صفحات التاريخ ليقين الظالمين بأنه لا قيام بعد الموت و لا حساب و لا مساءلة.

و الكبار كلهم ظنوا أنهم لا يموتون و لا يحاسبون ..و الذين خطر لهم أنهم يمكن أن يموتوا كان يقينهم أن الله سيبعثهم ملوكا ..و أن جنة الآخرة لهم ..آما كانت جنة الدنيا لهم ..و شيطانهم صنع لهم ذلك الوهم و أقنعهم به.

و كان قدماء المصريين أكثر من آمن بالبعث و الحساب و الميزان.
و لهذا كان المصريون آآثر الشعوب إنسانية.
إنه إفك قديم قدم التاريخ حكاية إنكار الناس للبعث.
و آآثر الشعوب تقدما و أقواها بأسا كانت أكثرها كفرا..

و هكذا كان ظن جاجارين حينما خرج من جو الأرض إلى الفضاء ..و كانت أول رسالة أرسلها إلى الشعب الروسي ..أنا في فضاء بلا نهاية ..لا وجود لأحد هنا غيري ..و لم أجد الله ..و حيثما أتلفت لا أجد إلها ..لا أحد سواي ..و رددت أبواق الإذاعة الشيوعية في موسكو لفورها ..أن جاجارين جاء بالخبر اليقين و أنه لم يجد إلها في السماوات.

هل تصور جاجارين أنه سيجد الله في شرف استقباله و أن موسيقى الملائكة سوف تعزف له السلام الملكي.
و قد مات جاجارين بعد ذلك بشهور في حادث تصادم ..ليس في الفضاء ..و لكن فيالأرض ..و في أزقة موسكو آأي آلب ضال ..و رأى ساعتها ما آان ينكره ..و

لكن بعد فوات الأوان ..بعد أن أصاب لسانه الخرس و توقف قلبه عن الخفقان ..و دفن مع سره في ظلام النسيان.

و سيظل ما بعد الموت طلاسم و ظنونا و غيوبا مغيبة.
و لن يكشف السر إلا بعد أن يغلق الباب الدائري خلف كل مرتحل و يستحيل التواصل بينه و بين أحد من الأحياء ..و في ظلام الوحدة المطلقة سوف تتجلى له الحقيقة و سوف يرى كل شيء ..و ساعتها لن ينفع الندم ..فكتاب الأعمال أغلق ..و حياته انتهت ..و ما بقى سوف تتقطع له نياط القلوب.و الويل لمن لا يفهم.

إن الله موجود ليس لأن المسلمين يؤمنون بوجوده و لكن لأنه حقيقة مطلقة أزلية لا معنى لشيء بدونها.

الله هو سر الجمال و الرحمة و المودة و الحرية و الحياة.
و أسماؤه الحسنى مطبوعة على الوردة و على إشراقة الفجر و على ابتسامة الوليد وعلى إطلالة الربيع و على آفتي الميزان و على صولجان الحكم ..فهو العدل الحكم ..وبدونه يستحيل العدل و تستحيل الرحمة و ينطمس الكون و يظلم فهو نور السماوات والأرض.

و هو الذي يمسك السماوات و الأرض أن تزولا و لئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده.
إن الدين يبدأ به ..و الفلسفة تنتهي إليه ..و العقل يتوقف عنده ..فلا كيف و لا كم و لا أين و لا متى!!.
و إنما ..هو..
و لا إله إلا هو..
و لا يملك العقل إلا السجود ..و لا تملك العين إلا البكاء ندما.
رفعت الأقلام و جفت الصحف.
اسألوا لنا و لأنفسكم الرحمة..
و التمسوا لنا و لأنفسكم النجاة.
لم يبق إلا التوسل..

(العيال الذين ظنوا أنفسهم آبارا)

أحيانا تراودني الرغبة في البكاء مثل طفل صغير يتيم تاهت عنه أمه في الزحام .و أشعر في تلك اللحظات أننا جميعا أطفال لا فرق آبير يذآر بيننا و بين أطفالنا في علمنا و معارفنا و أخلاقنا.

يخيل إلينا أننا اخترقنا السماوات بعلومنا .و لو فكرنا قليلا لوجدنا أننا مازلنا في حروف أ .ب . ت . ث .. و أننا آأولادنا على عتبة واحدة من الحيرة و التساؤل و الجهل.

يقول لك طفلك و هو يشاور على القمر :من أين جاءوا بهذا القمر يا أبي؟
و تجاوب عليه بكلام كثير .و تتلو عليه نظريات و افتراضات خلاصتها أنه لا أحد يعرف الحقيقة .و لا حتى أينشتين نفسه.

و يسألك طفلك عن جده الذي مات أين ذهب منذ موته.
و عن اخيه الذي ولد أين كان قبل مولده.
فلا تعرف جوابا.
فلا أحد يعرف ماذا قبل الميلاد و لا ماذا بعد الموت .و لا من أين .و لا إلى أين.
و يشاور لك على الكهرباء و يقول ما هذا؟ فتقول الكهرباء.
و يسأل ما هي الكهرباء فلا تجد جوابا.
و يسأل من أين أتت الكهرباء.

فتحكي له حكاية طويلة عن ماكينات النور و وابور النور .و أنت لا تدري ما النور .
و لو سألت علماء الطبيعة كلهم ما وجدت فيهم واحدا يستطيع أن يدلك على ماهية النور وكنهه، و لا حتى نيوتن، و لا أفوجادرو، و لا فاراداي.
و ما أجهلنا على الدوام.

ابتكرنا علم النفس و آتبنا فيه المراجع و نحن لا ندري ما هي النفس.
و اخترعنا الساعات لنقيس الزمن و نحن لا نعرف ما هو الزمن.
و سكنا الأرض منذ ملايين السنيين و مازلنا لا نعرف عنها إلا قشرتها.

و يجتمع شهود الحادثة الواحدة فيختلفون في روايتها و يحكيه كل واحد بصورة .و هذاشأن الحادثة التي لم تمر عليها ساعة فما بال التاريخ الذي مر عليه ألوف السنين و كتبت فيه المجلدات، كلها تخييل.و ما أبعدنا دائما عن الحقيقة.

و ما أقل ما نعلم.و ما أقرب الفارق بيننا و بين أطفالنا في علمنا و معارفنا.
بل ما أقرب الفارق بيننا و بين أطفالنا في أخلاقنا – نحن الأوصياء و المربيين
و كل منا يحتضن أملاكه كما يحتضن الطفل لعبته و لا يطيق أن تمسها يد منتفع.

و فينا البخيل و الشره، و الأكول و الطماع، و من يسيل لعابه على المليم.
و الطفل يخطف و الكبير يسرق.
و الطفل يضرب و الكبير يقتل.
و الطفل يمد يده بالإيذاء و الكبير يمد عصاه و سكينه.
و الطفل يرمي بحصاة و الكبير العظيم يرمي بقنبلة ذرية.

ألا يحق لي بعد ذلك أن أبكي على هذا العالم من العيال الذين ظنوا أنفسهم كبارا؟

قانون عدم المساواة

الدنيا ليس فيها مساواة.
لا مساواة في أي شيء.
كل وردة لها رتبة مختلفة من حيث الشكل و الرائحة و الجمال.
لا تتساوى وردتان.
و في نفس عائلة القطن نجد السكلاريدس ..و جيزة .. و جودفير ..و فولي جود فير ..وطويل التيلة و قصير التيلة ..لا يتساوى أخوان في العائلة الواحدة.
و في الفاكهة نجد في عائلة واحدة كالبلح مثلا عشرات الرتب و الدرجات والأصناف..الزغلول و السماني و الحياني و الأسيوطي و الرشيدي و بلح عيشا ..
و كل صنف له طعم و نكهة و مذاق.

و علماء الحشرات يصنفون لنا من الحشرة الواحدة; النمل أكثر من ألف نوع و; ل أسرة من أسر النمل يقولون لنا إن فيها أآثر من مائة مصنف و مصنف.
و في الإنسان يزداد التفاوت و التفاضل ..فنجد الذآي و الغبي، و الأحمر و الأسود و الأصفر و الأبيض و الأشقر، و الطويل و القصير و السمين، و الأصلع و الكثيف الشعر ..و نجد من يولد بحنجرة من ذهب و من يولد بحنجرة من خشب ..و من يولد جميلا و من يولد قبيحا..

بل إن كل إنسان يحمل بصمة إصبع مختلفة.
و كل إنسان هو رتبة في ذاته.

كل إنسان يتسلم لحظة ميلاده بطاقة تموين و إذن صرف و شيك، و ثروة من المواهب والتسهيلات الخاصة به.
و أكثر من هذا يولد كل مولود بعدد من خلايا المخ محدودة غير قابلة للتجدد او التكاثر،و ما يموت من هذه الخلايا لا يستحدث ..و لكل واحد منا عدد من هذه الخلايا هي كل ثروته ..و كل واحد يوهب عددا من هذه الخلايا مختلفا عن الآخر.

و معنى هذا أن الدنيا كلها تقوم على قانون التفاضل و التفاوت ..و أن عدم المساواة هوالقاعدة في كل شيء ..في النبات و الحيوان و الإنسان و الجماد ..حتى الجماد كل مادة فيه لها بلورتها الخاصة، و لها وزنها الذري، و وزنها الجزئي، و لها هندستها الخاصة في توزيع الإلكترونات و عددها.

لا مساواة على الإطلاق.
هكذا أراد خالق الكون لخلائقه.
هو أراد – لحكمة يعلمها – أن يخلقنا درجات.

و لعله خلق فينا القوي و الضعيف ليختبرنا و ليظهرنا على نفوسنا.
هل يأكل القوي الضعيف أو يحنو عليه و يعطف عليه و يساعده؟.
هل يدرك القوي أن قوته من الخالق، و انها هبة بأجل، و أن مصيرها الزوال؟ لو أدرك هذا فإنه سيكون المؤمن الذي يوظف قوته لنجدة الضعيف، لأنه يعلم أنه سيصبح يوما ما أضعف منه.

أم أنه سيخيل إليه أن القوة قوته هو، و العنفوان عنفوانه هو، و يمضي يضرب باليمين وبالشمال.

لو فعل هذا فهو الملحد المنكر الذي لا يتصور وجودا لقوة أعلى منه.
و الواقع أن الفرق بسيط ..فرق شعرة ..بين أن تحس بأنك قوي ..و بين أن تحس أنك وهبت هذه القوة ..و أن قوتك عطية و منحة.

هل آانت مصادفة

يحلو دائما للمفكر المادي أن يقول أن الإنسان خلق مصادفة ..من أخلاط المواد المتخمرة في طين المستنقعات منذ خمسة آلاف مليون سنة حدث بالمصادفة تفاعل أدى إلى نشأة الخلية ..و هو لا يقول لنا كيف حدث هذا التفاعل، و لاكيف حولت المصادفة الطين إلى خلية حية ..و إنما هو يقول إن هذا الأمر لابد قد حدث، و إننا لا يجب أن ندهش، فالخمسة آلاف مليون سنة زمن طويل جدا ..

و لو أن قردا جلس يدق على آلة كاتبة و يلهو بأصابعه مدى خمسة آلاف مليون سنة من الزمان فإنه لابد سيحدث بالمصادفة أن يكتب بيتا لشكسبير.

حسنا ..صدقنا و آمنا أنه بمصادفة فردية لا إحكام فيها و لا تدبير تحول الطين إلى خلية حية ..و ماذا بعد؟..
إن المفكر المادي يعود فيهرش مخه ليقول إنه بمصادفة أخرى تطور الكائن الوحيد الخلية إلى آائن متعدد الخلايا. ثم يعود فيهرش رأسه ليقول إنه بخبطة عشوائية ثالثة تفرع طريق الحياة إلى سكتين..
سكة الحياة النباتية التي اختارت النمو الثابت في الأرض ..و سكة الحياة الحيوانية التي اختارت الحركة و راحت تقتحم البر و البحر و الجو بنسلها المغامر الطموح.
ثم يعود فيهرش قفاه و يخرج بمجموعة مصادفات أخرى ليحول بها الكلاب إلى حمير،إلى خيول، إلى زراف إلى نسانيس، إلى قرود.

و هي مصادفات يخجل مؤلف سينمائي درجة ثالثة يكتب و هو مخمور فيلما لبنانيا ساقطا – أن يكتبها في روايته.

و لكن المفكر المادي الذي لا يؤمن بالخجل، و الذي يعتقد أنه حفيد بالمصادفة لجد حمار يعود فيخلق سيلا من المصادفات يحول بها الشمبانزي إلى غوريلا، والغوريلا إلى إنسان ..ثم يفرك يديه و يتنفس الصعداء فقد انتهى من المشكلة و أثبت أن الإنسان خلق بالمصادفة و يموت بالمصادفة.

و لا أفهم لماذا لا يترآنا المفكرون الماديون نعيش اعتباطا و على مزاجنا مادمنا قد جئنا بالمصادفة و نموت بالمصادفة و مادامت الحياة من بدئها إلى نهايتها خبط عشواء في خبط عشواء ..و ليس بعدها إلا التراب.

لماذ يثيرون هذه الحروب الدموية و يضربون الناس بعضهم ببعض في معرآة مذاهب لا نهاية لها؟
لماذا هذا العنف و القهر و الجبر و السحق؟

و من أجل ماذا و لا حق هناك ..إنما هي مهزلة من المصادفات جاءت بنا إلى الدنيا بدون حكمة ثم هي تقضي علينا بدون معنى ..ثم يكون الصمت و التراب و العدم بلا بعث و بلا حساب ..هكذا يقولون ..و هكذا يعتقدون ..فلماذا هذا الجنون و لماذا قتل الناس و ذبح الناس ..إذا كانت هكذا عقيدتهم؟

و لن أناقش حكاية المصادفات الساذجة، فهي لا تحتاج إلى مناقشة.
و يكفي أن ننظر إلى جناح فراش بنسجه و ألوانه و نقوشه لنعرف أننا أمام فنان مبدع وريشة ملهمة لم تترك بقعة واحدة و لا خطا واحد للمصادفة ..و إنما هي سيمفونية رائعة من الخطوط و الألوان.

بعوضة تافهة تضع بيضها على الماء فنكتشف حينما ننظر أن آل بيضة لها كيسان للطفو.. من علم البعوضة قوانين أرشميدس لتصنع هذه الأكياس الهوائية لتعويم بيضها على الماء؟

أشجار الصحارى و هي تنثر بذورها ..فإذا لكل بذرة أجنحة..
من علم الأشجار قوانين الحمل الهوائي؟
و كيف أدركت تلك الأشجار التي بلا عقل أن على بذورها أن تقطع مئات و آلاف الأميال في الصحارى بحثا عن ماء فزودتها بهذه الأجنحة؟
من علم الكتكوت أن يدق بمنقاره على أضعف مكان في البيضة ليخرج؟

من علم الحشرات فنون التنكر فراحت تتلون بألوان بيئاتها لتختفي عن الأنظار؟
من علم النحل قوانين العمارة لتبني هذه البيوت السداسية الدقيقة الجميلة من الشمع بدون آلات حاسبة و بدون مسطرة؟

من يهدي الطيور في رحلة الهجرة السنوية من نصف الكرة الأرضية إلى نصفها الآخر بدون بوصلة و بدون رادار ..عائدة إلى أوكارها؟

و مثلها الأسماك التي تهاجر عبر المحيطات و البحار لتضع بيضها.
لماذا لا نعترف ببساطة و بدون مكابرة أن هناك خالقا .و أنه هو الذي هدى رحلة التطور من الخلية إلى الإنسان .و أنه خلق آل شيء لحكمة و خلق الإنسان لهدف!

لماذا لا نعود إلى البداهة و الفطرة السوية السليمة التي ترى الإبداع في كل شيء من الذرة إلى ورق الشجر إلى جناح الفراش، إلى الشموس و المجرات في السماء .. فنصل إلى النتيجة البسيطة ..

إن مثل هذا الإبداع و مثل هذا الخلق لا يمكن أن يكون سدى ..و الإنسان لا يمكن أن يخلق عبثا ليموت عبثا ..و إنما للقصة بقية ..و للموت ما بعده.. أم أن الجد الحمار قد خلف آثاره التي لا علاج لها في أحفاده المفكرين الماديين الذين يقتتلون على الهباء و يدورون في الخواء.

(من أين تنبع السعادة)

منذ ألف سنة آن السفر إلى اليمن على الأقدام يحتاج إلى أعوام .يحمل المسافر خيمته وزاده و زواده و زكائب التمر و البلح و الخبز المكسر و يتوكل على الله. و بين الفيافي و الجبال و الوهاد و الأحراش يطل عليه الموت من أنياب ذئب جوعان،أو قاطع طريق متربص، أو حر لافح يقصم الظهر، أو برد قارص يثلج العظام ..فإذاوصل سالما فهو قد ولد من جديد، و هي الفرحة التي لا تدانيها فرحة. و المليونير على أيامها لم يكن يمتاز على الصعلوك إلا في الخيول المطهمة.
كان الفرس هو السيارة التي تختصر الأعوام في شهور، و كانت هذه هي سرعة البرق زمان.

و عرفنا السفن الشراعية لننتقل من أهوال البر إلى أهوال البحر.
يقلع المسافر فيمسك بأنفاسه و قد أدرك أنه أسلم نفسه إلى غول لا يعرف الرحمة .
فإذا وصل إلى بر الأمان دقت له الطبول و المزامير، و استقبلته الأحضان، و سجد لله شكرا من فرحة الوصول.

أما اليوم فنحن نقطع المسافة بين القاهرة و أسوان في ساعات بالقطار، و نشعر طول الوقت بالملل و الضجر و البطء، و ننظر إلى ساعاتنا، حتى إذا وصلنا سالمين بدأنا نسب و نلعن لأننا تأخرنا نصف ساعة.

و نركب الطائرة النفاثة لنصل إلى بيروت في دقائق، و نشكو مر الشكوى لأن الضباب و العواصف أخرت وصولنا عشر دقائق.

و حينما نسافر غدا بالصواريخ إلى المريخ سوف نكون أكثر مللا و تعجلا وسنقول : ما هذه الصواريخ اللكع؟ ألا يعرفون في مصلحة الصواريخ قيمة الوقت؟
و سوف تتضاعف قيمة الوقت بالفعل.

ستكون الساعة كافية للدوران حول العالم، و سيكون الشهر مهلة عظيمة لجولة في المجموعة الشمسية.و سوف تزداد الإمكانيات، و لكن سوف تتضاءل السعادة.
و كلما ازدادت الإمكانيات ازداد الطمع.

و كلما ازدادت السرعة ازدادت العجلة.
و كلما ازداد الترف ازدادت الشكوى.
تماما مثل حكاية الغني الذي يزداد طمعا كلما ازداد ثراء.

وهذا شأن المكاسب المادية، كلما ازدادت ازداد الافتقار إليها و إلى المزيد منها، و بالتالي ازدادت التعاسة.لأن السعادة موطنها القلب و ليس الجيب، و لا عبرة فيها بازدياد الإمكانيات المادية.

السعادة تنبع من الضمير .و من علاقة الإنسان بنفسه و علاقته بالله و هي في أصلها شعور ديني و ليست شعورا ماديا.و هي تنبع من إحساس الإنسان بأنه ليس وحده و أن الله معه، و أن العناية تحوطه والإلهام الخير يسعفه، و أنه يقوم بكل واجباته.

و لهذا يمكن أن ينتحر مليونير يملك باخرة و طائرة و عدة ملايين من الدولارات في حين تجد الراهب الذي يعيش على الكفاف يضيء وجهه بسكينة داخلية لا حد لها، ويسارع إلى نجدة الآخرين في محبة و سعادة، لأنه يؤمن بأن للحياة معنى و حكمة، و أنها لم تخلق عبثا، و إنما خلقها العادل الرحيم.

(السلطان الحقيقي)

قل لي فيم تفكر أقل لك من أنت.

هل أنت مشغول بجمع المال و امتلاك العقارات و تكديس الأسهم و السندات؟ أم مشغولبالتسلق على المناصب و جمع السلطات و التحرك في موكب من الخدم و الحشم والسكرتيرات؟ أم أن كل همك الحريم و موائد المتع و لذات الحواس و كل غايتك أن تكون لك القوة و السطوة و الغنى و المسرات.

إذا كان هذا همك فأنت مملوك و عبد.
مملوك لأطماعك و شهواتك، و عبد لرغباتك التي لا شبع لها و لا نهاية.
فالمعنى الوحيد للسيادة هو أن تكون سيدا على نفسك أولا قبل أن تحاول أن تسود غيرك.
أن تكون ملكا على مملكة نفسك .أن تتحرر من أغلال طمعك و تقبض على زمام شهوتك.و القابض على زمام شهوته، المتحرر من طمعه و نزواته و أهوائه لا يكون خياله مستعمرة يحتلها الحريم و الكأس و الطاس، و الفدادين و الأطيان و العمارات، والمناصب و السكرتيرات.

الإنسان الحقيقي لا يفكر في الدنيا التي يرتمي عليها طغمة الناس.
و هو لا يمكن أن يصبح سيدا بأن يكون مملوكا، و لا يبلغ سيادة عن طريق عبودية .
و لا ينحني كما ينحني الدهماء و يسيل لعابه أمام لقمة أو ساق عريان أو منصب شاغر .فهذه سكة النازل لا سكة الطالع.

و هؤلاء سكان البدروم حتى و لو كانت أسماؤهم بشوات و بكوات، و حتى و لو كانت ألقابهم، أصحاب العزة و السعادة.فالعزة الحقيقية هي عزة النفس عن التدني و الطلب.

و ممكن أن تكون رجلا بسيطا، لا بك، و لا باشا، و لا صاحب شأن، و لكن مع ذلك سيدا حقيقيا، فيك عزة الملوك و جلال السلاطين، لأنك استطعت أن تسود مملكة نفسك.
و ساعتها سوف يعطيك الله السلطان على الناس .و يمنحك صولجان المحبة على كل القلوب. انظر إلى غاندي العريان ..البسيط ..كم بلغ سلطانه؟

كان يهدد بالصوم فيجتمع مجلس العموم البريطاني من الخوف و كأن قنبلة زمنية ستقع على لندن .و كان يجمع أربعمائة مليون هندي على كلمة يقولها .و كأنها السحر.

هذا هو السلطان الحقيقي.
هذا هو الملك الحقيقي الذي لا يزول.
الحريم و القصور و الكنوز و الثروات و العمارات مصيرها إلى زوال.

لن تأخذها معك إلى تابوتك .سوف تنتقل إلى الورثة ..ثم إلى ورثة آخرين، ثم تصبح خرائب مع الزمن.

أما محبة الملايين فسوف تصاحبك في تابوتك و تظل علما على اسمك مدى الدهر .
كما تفوح الذكرى عطرة تضوع بالشذا كلما جاء اسم غاندي على الألسن.

الغنى الحقيقي أن تستغني. و الملكية الحقيقية ألا يملكك أحد، و ألا تستولي عليك رغبة، و ألا تسوقك نزوة.

و السلطنة الحقيقية أن تكسب قيراط محبة في دولة القلوب كل يوم.
تذكر أن الذين يملكون الأرض تملكهم .و الذين يملكون الملايين، تسخرهم الملايين، ثم تجعل منهم عبيدا لتكثيرها، ثم تقتلهم بالضغط و الذبحة و القلق .ثم لا يأخذون معهم مليما.

صدقني هؤلاء هم الفقراء حقا.